الشـــعر والتـــاريخ

دراسة تطبيقية على شعر الحركة الصليبية

للدكتور قاسم عبده قاسم

العلاقة بين الفن والتاريخ (ماهية التاريخ ــ الفن مصدر من مصادر المعرفة التاريخية ــ التاريخ الهام للفنان ــ الفرق بين المؤرخ والفنان) ــ الشعر كمصـــدر تاريخى (الملاحم ــ القصائد الفردية) ــ الحركة الصليبية والشعر ــ (الشعر العربى ــ الشعر الأرمنى ــ الشعر الأوربى) ــ الفكرة الصليبية وتطورها من خلال دراسة أغنيات الحروب الصليبية (أنشودة أنطاكية ــ أغنيات الحروب الصليبية) ــ خاتمة .

بين الفن والتاريخ علاقة جدلية ، فالفن مصدر هام من مصـــادر المعرفة التاريخية ، كما أن التاريخ بأحداثه وظواهره وشخوصه وأبطاله، منبع للوحى والالهام فى الفن . والحدود بين الفن والتاريخ ليســت حدودا صارمة مانعة ، وانما هى حدود متداخلة بحيث تحسبها حدودا وهمية فى بعض الأحيان . فالانسان هو الموضوع المشترك لكل من الفن والتاريخ ، وهو من ناحية أخرى ، المبدع فى دنيا الفن وصانع أحداث التاريخ[1] . وبينما يرتبط التاريخ بالزمان اطارا ، وبالمكان مسرحا على نحو محدد واضح ، نجد ارتباط الفن بالزمان والمكان ارتباطا فضفاضا ،

---

(١) عن هذا الموضوع انظر : قاسم عبده قاسم وأحمد الهوارى ، الرواية التاريخية فى الأدب العربى الحديث ، دار المعارف ١٩٧٩ م .

فالفن قد يتخطى حدود الزمان والمكان فى سبيل قيمة فنية بعينها ، بيد أنه لا يستطيع أن يخرج عن نطاق الزمان الانسانى ، أو بيئة الانسان خروجا مطلقا •

واذا كنا نقول بأن الفن ، بكافة أجناسه من فنون القول وفنــون الشكل ، مصدر هام من مصادر المعرفة التاريخية ، فان قولنا هذا نابع من يؤثر كل منهما فى الآخر ويشكله بدرجة أو بأخرى • ذلك أن الانســان ذلك أن التاريخ ، كعلم ، يلهث وراء الانسان من عصر الى آخر باحثا ومستفسرا ، فى محاولة لأن يفهم الانسان ويفهمه حقيقة وجوده على سطح الأرض ، والعلاقة بين الانسان والتاريخ علاقة جدلية أيضا ، اذ يؤثر كل منهما فى الآخر ويشكله بدرجة أو بأخرى • ذلك أن الانســان فاعل تاريخى ، بمعنى أنه يصنع التاريخ (سواء كان واعيــا بدوره التاريخى أم لا) • كما أن الانسان من ناحية أخرى ، من نتاج التاريخ ، فهو الكائن الوحيد الذى يعى صيرورة الزمن ويفيد منها ما يضيف جديدا الى خبرته على الدوام • وبمرور الزمن تتراكم انجازات البشر الحضارية لكى تصير تراثا (أو تاريخا بمعنى من المعانى) • ولكن هذا التــراث أو التاريخ لا تنقطع صلته بالحاضر الانسانى[٢] • فالماضى هو الأب الشرعى للحاضر • وانسان اليوم بفكره وخبراته هو ثمرة تجارب وأفكار الانسان مذ بدأ يسعى على سطح هذا الكوكب • فالمــاضى يعيش فى الحاضر باستمرار • وليس من المتصور على أية حال أن يكون عالم اليوم، بكل ما يحويه ، نتاجا للحاضر فقط •

واذا كان الانسان فى حاضره يخضع ، جزئيا ، لماضيه ، فان تفسير هذا الحاضر ومشكلاته يفرض علينا أن نبحث عن جذورها فى الماضى • والتاريخ ، كعلم ، هو وسيلتنا لذلك ، فلكل ظاهرة فى المجتمع

(2) Carl G. Gustsvson, A preface to History, (Mc Graw-Hill, 1955), pp. 12 — 23.

جذورها ، ومن يحاول فك غموض الظاهرة أو الكشف عن أسرارها دون الاستعانة بالتاريخ انما يحرث فى البحر •

وقد مضى زمن كان فيه مصطلح « التاريخ » مرادفا لكل نادرة أو عجيبة ، كما تخلى التاريخ عن مكانه التقليدى فى قصور الحكام والاباطرة والسلاطين والملوك ، ونزل يسعى وراء الحقيقة فى الشوارع والطرقات والأسواق ، بين جموع الفلاحين وجماهير العمال ، وجماعات المثقفين والفنانين والشعراء • لقد بدأ علم التاريخ يدرس أحوال صناع التاريخ الحقيقيين فى المصانع والحقول والمدارس والجامعات ، وأماكن العبادة ونوادى الأدب وقاعات الفنون ••• وتمثلت النتيجة فى تلك الفروع الكثيرة التى تفرع اليها مسار الدراسات التاريخية(٣) •

هذا التطور الذى ألم بعلم التاريخ هو الذى يجعل الفن ، كمصدر من المعرفة التاريخية قيمة كبيرة لدى المؤرخ الذى يعكف على اعادة بناء الماضى متسلحا بمنهجه الاستردادى • فاذا كان مفهوم « التاريخ » قد اتسع ليشمل سيرة البشر الحضارية ، فان مصادر المؤرخ ، التى تساعده على اعادة تصوير الماضى ، قد تنوعت بحيث تشمل كافة ما أنجزه الانسان، أو فكر فيه ، أو تطلع اليه بأمل ، منذ بدأ سعيه على وجه الأرض ، وفى أشكال الابداع الفنى المتنوعة (من فنون القول شعرا ، ورواية ، وقصة، ومسرح •• وما الى ذلك ، الى فنون الشكل من عمارة ، ونحت ، وتصوير ••• وغيرها) يجد المؤرخ مادة تاريخية خصبة ، فالفن ، كمصدر من مصادر المؤرخ ، يعكس روح العصر الذى يهتم به ويكشف عن وجدانه، كما يساعده على الاقتراب أكثر من هدفه الذى هو اعادة بناء صورة الماضى • اذ أن الفن يساعد المؤرخ على فهم انسان العصر الذى يدرسه، بمشاكله ، بآماله وهمومه ، برفعته وضعته ، بنجاحاته واخفاقاته ،

---

(٣) حول تطور الكتابة التاريخية أنظر :

H. E. Barnes, A history of Historical writing, (2 nd ed., Dover, New York 1963), pp. 373 — 405.

بانجازاته واحباطاته ، بقيمه ومثله وأخلاقياته . وهذه كلها أمور لا نجدها بسهولة ، وربما لا نجد لها صدى على الاطلاق ، فى طيـــات الوثائق التاريخية التقليدية أو فى كتابات المؤرخين . فضلا عن أن أشكال الابداع الفنى تنبىء عن مزيد من التفصيلات الدقيقة عن النظام الاقتصادى والاجتماعى والسياسى فى أى عصر نهتم بدراسته . كما تسهم أشكال الابداع الفنى ، بأدواتها وأطرها التعبيرية الخاصة فى اعادة بناء صورة الماضى وبعث روحه من مرقدها . ولعل من المفيد فى هذا الصدد أن نقرر أن افضل مصدر للمؤرخ هو ذلك الذى لم يكتب بقصد أن يكون تاريخا .

من ناحية أخرى ، يجد الفن لنفسه الوحى والالهام فى أحداث التاريخ وظواهره وأبطاله . هذا الاستيحاء التاريخى فى الفن سمة عامة فى الفنون الانسانية . ويكثر لجوء الفنان الى معين التاريخ لينهل منه فى عصور التردى والاحباط ، اذ يتوجه الفنان الى التاريخ بحثا عن المثل الأعلى أو رغبة فى التعويض العاطفى ، وربما فرارا من زمن العجز الذى يحيا فى رحابه وهربا الى أحضان الماضى الذى قد يبدو مجيـــدا أو مثاليا بالقياس الى الحاضر . وهنا نجد أن الفنان الذى يستلهم التاريخ فى ابداعه الفنى يتخذ من الأحداث (أو الحقائق) التاريخية نواة ينطلق منها خياله الفنى الخالق ، وينسج حولها من رؤيته ورؤاه الابداعية . وهنا يكون الخيال الخالق لدى الفنان مقيدا بالاطار التاريخى العـــام الذى وضع نفسه رهن أغلاله ، فهو يبدأ بالحدث التاريخى « الماثل » لينطلق صوب الرمز المعنوى أو « المثال » .وقد يبتكر شخوصا وأحداثا فرعية فى الاطار التاريخى العام لتحقيق هدفه الفنى .

ويجمل بنا أن نتريث بعض الشيء لنتأمل الفرق بين مهمة المؤرخ، ومهمة الفنان . فالمؤرخ ينشد الحقيقة التاريخية المجردة ، وهو فى بحثه عن هذه الحقيقة التاريخية يحاول اعادة بناء صورة الماضى « كما حدث بالضبط » متسلحا بمنهجه الاستردادى وقيود هذا المنهج الصارمة ، مسترشدا بصادره (ومن بينها الفن بطبيعة الحال) فى محاولة لتحقيـــق

هدفه فى اعادة تصوير الماضى ، ثم هو من ناحية أخرى ، يحاول تفسير هذا الماضى من خلال الكشف عن العلاقة السببية بين مختلف الظواهر التاريخية • ومن أهداف المؤرخ أيضا أن يحاول كشف قوانين حركة التاريخ لكى تكون أداة فى تفسير الحاضر واستشراف طريق المستقبل •

أما الفنان ، فانه حين يختار التاريخ مجالا لعمله الفنى يضع نفسه رهن أغلال الحقيقة التاريخية فى اطارها العام • ولكنه يكون فى حل من القيود الصارمة التى يفرضها المؤرخ على نفسه • كما أن الفنان فى عمله الفنى يكون بعيدا عن استخدام المنهج • وانما يرى فى الحقيقة التاريخية شيئا أشبه بالهيكل العظمى ، فيكسوها بخياله الفنى لحما ، وينفخ فيها من روحه الابداعية ، فاذا الحدث التاريخى قد استوى كائنا حيا جاءنا عبر العصور ، ليس على صورته التاريخية الدقيقة ، ولكن فى الاطار العام للحقيقة التاريخية واذا التاريخ بشخوصه وأحداثه، قد أصبح يعايشنا فى حاضرنا ، بل ويعبر عن هذا الحاضر بفضل الفنان الذى بنى بفنه جسرا جعل الماضى والحاضر يتداخلان بشكل يصعب تحديد مداه • وينبغى على الفنان ألا يلوى عنق الحقيقة التاريخية فى سبيل الابداع الفنى ، فان ذلك يعد تزييفا للتاريخ وينأى بالعمل الفنى عن خاصية أولية من أهم خواصه ، وهى الصدق •

والصدق الذى نقصده هنا هو « الصدق التاريخى » الذى لا نراه متعارضا مع « الصدق الفنى » • اذ لا ينبغى أن يكون « الصدق الفنى » ذريعة للتنصل من « الصدق التاريخى » الذى يخلق غيابه آثارا سلبية خطيرة فى الوجدان الانسانى بشكل عام •

واذا كان الهدف من العمل الفنى ، الذى يتخذ التاريخ مجالا له ، هو بعث قيمة بعينها ، أو تكريس مفهوم ما ، أو تجسيد مثل أعلى ، أو حتى دغدغة مشاعر الفخر والاعتزاز القومى والوطنى ، فان « الصدق التاريخى » ، فى تصورنا ، هو خير أداة لتحقيق هذا الهدف • بيد أن

هذا لا يعنى بالضرورة أن يكون العمل الفنى وثيقة تاريخية ، أو محاضرة، أو بحثا فى التاريخ ، لأن هذا يكون بعيدا تماما عن الفن • ولكن ما نقصده هو أنه لا يجوز للفنان أن يغير ملامح عصر ما ، وأن يمسخ الشخصيات التاريخية ، متذرعا بالصدق الفنى • ومن ناحية أخرى ، فان من حق الفنان أن يخلق الشخوص ويصنع الأحداث الفرعية التى تحمل وجهة نظره ، وتكرس الأفكار والقيم التى ينشدها •

* * *

وما أوردناه عن الفن عامة ينسحب على الشعر بشكل خاص • فالفنون الشعرية مصدر هام لابد للمؤرخ أن يعول عليه وهو يحاول استعادة صورة عصر ما من العصور التاريخية • بيد أن هذا لا يعنى أن النصوص الشعرية ، بكافة أجناسها ، يمكن أن تكون نصوصا تاريخيا بحد ذاتها • بمعنى أننا لا يمكن أن نستخدمها بنفس الطريقة التى نستخدم بها الوثائق والنصوص التاريخية التقليدية ، كما أننا لا نستطيع أن نتجاهلها بدعوى أنها نتاج لخيال الشعراء الذى يتجاوز الواقع • اذ أننا حين نتعامل مع فنون الشعر بحثا عن المادة التاريخية نلجأ كثيرا الى الاستنتاج والاستنباط والاستقراء ، كما نلجأ الى اختبار المادة التاريخية الشعرية فى ضوء المصادر التاريخية الأخرى •

لقد فرق أرسطو فى كتابه « فن الشعر » ، بين الشعر بوصفه التمثيل الأعلى ، وبين التاريخ بوصفه تصوير الأحداث الواقعة « •• لأن الشعر يمثل ارتباطا ضروريا ومحتملا بين الأفعال لا يكفى لتحقيقه تصوير الواقع وحده • وعالم الشعر وان كان مخالفا لعالم الواقع أقدر على ادراك أسرار القلب الانسانى لأنه يحسن استنباط المنطق من الأفعال الانسانية والانفعالات ••• ومهمة الشاعر الحقيقية ليست فى رواية الامور كما وقعت فعلا ، بل رواية ما يمكن أن يقع • والأشياء ممكنة : اما بحسب الضرورة أو بحسب الاحتمال • ذلك أن المؤرخ والشاعر

لا يختلفان بكون أحدهما يروى الأحداث شعرا والاخر يرويها نثرا (فقد كان من الممكن تأليف تاريخ هيرودتس نظما ، ولكنه كان سيظل مع ذلك تاريخا سواء كتب نظما أو نثرا) ، وانما يتميزان من حيث كون أحدهما يروى الأحداث التى وقعت فعلا ، بينما يروى الآخر الأحداث التى يمكن أن تقع ... »[٤] .

وعلى الرغم من أن كلمات أرسطو توضح أن الشاعر لا يلتزم بالواقع الذى يلتزم به المؤرخ ، وهى حقيقة يدركها الباحثون على الدوام ، فان الشاعر يظل مصدرا هاما للمؤرخ لأنه « ... أقدر على ادراك أسرار القلب الانسانى ، لأنه يحسن استنباط المنطق من الافعال الانسانية والانفعالات » هذا الجانب الوجدانى فى الشعر هو الذى تفتقر اليه المصادر التاريخية الأخرى من ناحية ، وهو الذى يمكن أن يساعد المؤرخ على استكمال ملامح صورة الفترة الزمنية التى يدرسها من ناحية أخرى .

واذا كنا نسلم بأهمية الشعر كمصدر من مصادر المؤرخ ، فاننا يجب فى الوقت نفسه أن نفرق بين الملاحم الشعرية الكبرى التى غالبا ما تكون تعبيرا كليا تراكميا عن عصر من العصور أو مجتمع ما فى فترة تاريخية بعينها ، وبين القصائد الفردية التى يمكن أن تكون تسجيلا لحادث جزئى ، أو تعبيرا عن وجهة نظر جزئية تطل على الحدث التاريخى من زاوية محدودة . وعلى الرغم من اختلاط الخيال الفنى بالواقع التاريخى فى الملاحم الشعرية التاريخية ، فانها غالبا ما تكون هاديا ومعينا للمؤرخ فى الكشف عن كثير من ملامح العصر الذى تنتمى اليه ، اذ أنها تعبير عن المجتمع ككل تحمل قيمه ومثله وأخلاقياته بين طياتها ، فضلا عن أنها تحمل الكثير من تفاصيل الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية

---

(٤) أرسطو طاليس ، فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابى وابن سينا وابن رشد (ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه عبد الرحمن بدوى ـــ النهضة المصرية ١٩٥٣) ، ص ٢٦ .

التى كانت سائدة فى المجتمع الذى جاءت هذه الملحمة نتاجا له وتعبيرا عنه فى فترة من فتراته التاريخية •

ففى تراث الشعوب المختلفة ما تزال الملاحم الشعرية تعتبر من أهم المصادر التاريخية ، بل ان بعض الباحثين يرون أن هذه الملاحم تمثل المرحلة الانتقالية بين عصر الاسطورة وعصر التاريخ ، أو هى « نهـاية عصر الاسطورة وبداية عصر التاريخ » • ذلك أن التسجيلات الأولى (مثل ملحمة جلجامش الأكادية ــ البابلية ، وما سجله القدماء المصريون، أو تصورات رج فيدا الهندية ، أو أفكار الكنعانيين الفينيقيين التى نقلها العبريون) كانت من الضبابية والايغال فى الخيال بحيث كانت أجـرأ الأساطير • والفكر التاريخى فى حقيقة أمره فرخ من أفراخ الاسطورة • فقد طبعت الاسطورة الخطوات الأولى حتى جاء بدايات التاريخ موصولة بأواخر عصر الاسطورة التى كانت وظيفتها الفكرية / الاجتماعية ترقيع النقص والنسيان فى الماضى الانسانى من جهة ، وأن تقدم من جهة أخرى المحاولات الأولى لتوضيح الترتيب الزمنى للخلق والأشياء والأحداث ، ولكن الطابع الاسطورى لهذه الكتابات الباكرة جعلها تفتقر الى عنـصر الزمان ، فليس للزمن الاسطورى مبنى محدد ، وانما هو زمن أزلى ، لأن الاسطورة ترى أن الماضى لم ينته ، بل ما يزال مستمرا[٥] •

و اذا كان بعض الباحثين يصفون الاسطورة بانها العلم البدائى ، فانه يجدر بنا أن نشير من جديد الى أن التاريخ ، كعلم ، قد نشأ وتطور فى حجر الاسطورة التى كان ميلاده فى رحمها • ولا غرو اذن أن تحفل الملاحم الشعرية الاسطورية الطابع بالكثير من الحقائق التاريخية • فهناك علاقة قوية بين الاسطورة والشعر ، وأقدم النصوص التى وصلتنا هى

---

(٥) ارنست كاسيرر ، المدخل الى فلسفة الحضارة الانسانية (ترجمة احسان عباس ، بيروت ١٩٦١) ص ٢٩٥ . شاكر مصطفى ، « التاريخ هل هو علم ؟ » ، عالم الفكر ، المجلد الخامس ــ العدد الأول ابريل ــ يونيو ١٩٧٤ م ، ص ١٧٦ــ١٧٧ •

النصوص الشعرية ، والشعر القصصى منها على نحو خاص • فقد كان من الضرورى أن تصبح الاسطورة كلاما موزونا ، أو أناشيد ذات ايقـــاع خاص • ومن المعلوم أن أقدم الاساطير كانت غناء دينيا ثم صارت ملاحم شعرية[٦] وفى تلك المرحلة كان التاريخ يختلط بالخيال فى الملاحم الشعرية ذات الطابع الاسطورى • وقد كان تاريخ الجماعات الانسانية آنذاك محفوظا فى الموروثات الشفاهية التى كان القالب الشعرى بجرســـه وموسيقاه وايقاعاته ، هو الاطار المناسب لها • وفى هذا الصدد يقول أرسطو ان الشعر نشأ لسببين طبيعيين هما غريزة المحاكاة ولذة التعلم• وعنهما تولدت الرغبة فى اللحن والاستمتاع بالايقاع • ومن هـــذه الميول الفطرية يرى أرسطو أن الشعر قد ولد مرتجلا فى بداية أمره[٧]• واذا أخذنا برأى أرسطو فى هذا المجال ادركنا السبب فى أن كتابات مطالع عصر التاريخ وأواخـــر عصر الأســـطورة قد جـــاءت فى قالب شـــعرى •

ويحفل التراث الانسانى بالكثير من الملاحم الشعرية التى تجمع بين التاريخ والخيال • وحقيقة الأمر أن هذه الملاحم قد نسجت حول نواة من الأحداث التاريخية الحقيقية ثم أخذ الانسان يضفى عليهـــا قيمه ومثله العليا ، وآماله وأفكاره عبر العصور ، حتى جاء زمن دونت فيه الملحمة فى شكلها الأخير فكانت تعبيرا تراكميا عن حقب زمانية متوالية من حيث مضمونها التاريخى من الحوادث والأسماء المختلفة ، وان جاءت تعبيرا وجدانيا عن عصر التدوين •

والالياذة والأوديسية المنسوبتان الى هوميروس تصلحان مثالا

---

(٦) أحمد كمال زكى ، الأساطير (المكتبة الثقافية ، رقم ١٧٠ ـــ الكاتب العربى ١٩٦٧) ، ص ٦٨ــ٧١ •

(٧) ارسطو طاليس ، فن الشعر ، ص ١٢ •

جيدا للدلالة على ما نقول(٨) . فقد حاول الأثريون والمهتمون بدراسة الآثار أن يثبتوا حرب طروادة من الناحية التاريخية ، وكان التاجر الألماني هينريخ شليمان H. Schlimann هو الرائد فى هذا السبيل . وسار على دربه عدد من العلماء من جنسيات أخرى . وكللت جهودهم بالعثور على آثار مدينة تتفق أوصافها مع ظروف طروادة هوميروس. هذا التطابق العام أثبت تاريخية حرب طروادة التى رسمها هوميروس بالشعر والقصص ، ولكن اختلافات كثيرة ما تزال قائمة بين ما أنشده الشاعر وما كشف عنه البحث التاريخي والأثرى الحديث . وعلى الرغم من هذا فان هميروس لم يبدأ من نقطة اللاشىء فى نظم ملحمتيه الطويلتين ، وانما كان تحت يديه قدر كبير متراكم على مر القرون من التراث الأدبى الشعبى ممثلا فى أناشيد وأساطير وأغانى نسجها اليونانيون على مر الأجيال حول الحوادث التى مرت بهم وحول القيم والمثل التى كانت تسيطر على حياتهم . ومن طبيعة الأمور أن النظم الاجتماعية والسياسية ، ونوع الموارد الاقتصادية التى اعتمد عليها اليونانيون عبر العصور كانت فى تطور مستمر ، وقد سجلت ملحمتا هوميروس كثيرا من هذه النظم ورصدت العديد من الظواهر .

ويمكن لدارس الحضارة أن يستخدم ملحمتى هوميروس كمادة تاريخية لتصوير حقبة من حياة المجتمع اليونانى دون أن يتعرض لخطأ فادح لعدة أسباب . فنحن لا نعتمد على الالياذة والأوديسية لمعرفة تفاصيل أو أحداث جزئية ، وانما السبب الأساسى فى اعتمادنا عليهما هو الرغبة فى معرفة الاتجاهات العامة للاوضاع والقيم الاجتماعية والتيارات السياسية أو الاقتصادية أو غيرها . وفضلا عن ذلك ، فان المؤرخين يجدون الكثير من الحقائق التاريخية فى ثنايا أبيات هاتين

(٨) انظر الدراسة القيمة التى طرحها الاستاذ الدكتور لطفى عبدالوهاب فى هذا الموضوع بعنوان : « عالم هوميروس » — مجلة عالم الفكر ، المجلد الثانى عشر ، اكتوبر — ديسمبر ١٩٨١ م ، ص ١٣—١٥ .

الملحمتين • ولعل أفضل ما قيل عن الالياذة والأوديسية هو أن من يبحث فيهما عن التاريخ يجد خيالا كثيرا ، ومن يبحث عن الخيـــال يجـــد تاريخا كثيرا •

وقد كان لعرب قبل الاسلام تراث اسطورى يستحق الدراســـة الجادة ، ونلتقى فى بقاياه بالبطل الاسطورى والساحر والمارد والحية ذات الرأسين ، ونقرأ عن أسجاع الكهان الدينية وعن شداد عاد المتمرد ، وعن لقمان •• وغير ذلك مما بقى لدينا فى مقدمات كتب التاريخ العربى، وفى بعض الشعر الجاهلى والاسلامى[9] • كما أن الشعر العربى فى الفترة السابقة على ظهور الاسلام يعتبر من أهم مصادر معـــرفتنا التاريخية بأحوال العرب قبل الاسلام ، اذ كان الشعر هو الوعاء الذى حفظ جوانب هامة من التاريخ العربى فى تلك الآونة لسهولة تداوله الشفوى • وعلى الرغم من أن أيام العرب (التى كانت تحوى أخبار البطولات والامجاد والمعارك العربية) قد اتسمت بالتحيز والمغالاة ، فانها ولا شك قد نسجت حول نواة من الوقائع التاريخية بحيث يمكننا أن نطمئن اليها بعض الاطمئنان كمصدر من مصادر معلوماتنا عن تاريخ العرب قبل الاسلام على حد تعبير أحد الباحثين[10] •

وفى قصص الأيام تتبدى النزعة الملحمية جلية واضحة بحيث تختلط الحقيقة بالأسطورة ،ويمتزج الفن بالتاريخ ، وتتصاعد الحبكة (الدرامية) حتى تبلغ أوجها فى موقف شعرى خالص يلقيه الراوى على لسان أبطال القصة • واذا كان بعض الباحثين يرى أن هذه الحبكة ذات تأثير سلبى « •• بحيث تختفى الدلالة التاريخية الحقيقية ، وتعجز عن الاشارة الى وجود شعور تاريخى معين للذات القبلية التى تحـــكمها

---

(٩) أحمد كمال زكى ، الأساطير ، ص ٢٨ــ٢٩ •

(١٠) حسين نصار ، نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى (ط. ثانية، القاهرة ١٩٦٦ م) ، ص ١٧٣ــ١٧٤ •

العصبية ، وما يتصل بها من القيم الاجتماعية •• »[١١] ، فاننا لا نستطيع أن نوافقه على هذا الرأى بسهولة • ذلك أن التنظيم القبلى للمجتمع ، أى مجتمع ، ليس سوى درجة أولية فى سلم التطور الاجتماعى خاصة والتطور الحضارى عامة • واذا كانت « أيام العـــرب » بما تحمله من اتجاهات واهتمام بتجسيد البطولة حول فرد من أفراد القبيلة ، هى التى تمثل الفكر التاريخى لدى العرب قبل الاسلام (الى جانب الأنساب) ، فان ذلك لا يعنى « عدم وجود شعور تاريخى معين للذات التى تحكمها العصبية » ، وانما على العكس من ذلك يدل على أن الذات القبلية كانت هى محور هذا الشعور التاريخى • ولذا كانت الأيام والأنساب أداة المجتمع القبلى العـــربى فى التعبير عن هذا الشـــعور التاريخى لدى القبيلة[١٢] •

واختفاء الموضوع التاريخى للقصة خلـــف التراكمات الملحميـــة والبطولية سمة عامة تميز كافة أنماط التراث التاريخى لدى المجتمعات القبلية فى كل زمان ومكان • بيد أن هذه السمة لا تنقص من أهميـــة الاعتماد على الشعر الملحمى كمصدر من مصادر المعرفة التاريخية ، ففى بعض الأحوال لا يجد المؤرخون أمامهم مصدرا للمعلومات التاريخية سوى التراث الشعرى الذى يختبرون مدى تاريخيته بالحفريات الأثرية كما هو الحال فى تاريخ القبائل الجرمانية • فالواقع أن مصادر الفترة الباكرة من تاريخ الجرمان تكاد تنحصر فى البحوث الأثرية من جهة ، وفى الشعر الملحمى الجرمانى من جهة أخرى • والقصيدة الوحيدة التى وصلتنا هى ملحمة بيوفولف Beowulf ، وهى ملحمة جرمانية تدور حول بطل اسكندنافى عاش فى العصور السحيقة • وقد ظلت هـــذه الملحمة الشعرية محلا للتداول الشفوى على مدى عشرات السنين ، وربما

---

(١١) عفت الشرقاوى ، أدب التاريخ عند العرب (القاهرة ١٩٧٦ م) جـ ١ ، ص ١٤٩ — ١٥٠ •

(١٢) قاسم عبده قاسم ، الرؤية الحضارية للتاريخ عند العرب والمسلمين (دار المعارف ١٩٨١) ، ص ٥٩ — ٧٢ •

عدة قرون ، ثم جمعت أشعارها ودونت فى منتصف القرن الثامن الميلادى تقريبا على يد قسيس أنجلو ـ سكسونى • وهذه الملحمة حافلة باثار شتى من المصادر التاريخية الأخرى • وقد تأكدت بعض أحداث الملحمة وبعض شخصياتها بورودها فى المصادر التاريخية التى ترجع الى القرن الخامس[١٣] •

والملحمة تضم فى ثناياها كما مدهشا من أعلام وأحداث العصور الوسطى الباكرة ، كما تكشف عن النظرة الجرمانية التلقائية للاشياء ، وطريقة الجرمان الطبيعية فى التعبير • ويرى بعض العلماء أن ما ذكره تاكيتوس فى القرن الأول عن أحوال الجرمان[١٤] يجد تأييدا له فى أبيات ملحمة بيوفولف التى تعتبر مصدرا محترما من مصادر معلوماتنا عن النظم الجرمانية زمن الغزوات حين كانت السيادة Lordship ، وعصبة الحرب Comitatus ، أو Gefloge قد صارتا محور الحياة الجرمانية على نحو أكثر تركيزا مما كانت عليه فى القرن الميلادى الأول •

وما نقوله عن ملحمة البيوفولف ينسحب على ملاحم شعرية أخرى كثيرة تنبىء عن أحوال أوربا فى العصور الوسطى ، فلدينا أنشودة نيبيلونج Nibelungenlied التى وصلتنا فى نص يرجع الى القرن الثالث عشر مثقل بأفكار الفروسية التى لا تتوافق مع المفاهيم التى كانت

---

(١٣) انظر الترجمة الانجليزية لهذه الملحمة فى :

Beowulf. M. Alexander, trans. Baltimore : Penguin 1973.

انظر أيضا أجزاء من الترجمة وتعليقات فى

Norman F. Cantor, The Medieval World (Macmillan, New York 1968), pp. 61 — 36., Robert Brentono, The Early Middle Ages 500 — 1000 (Macmillan, New York 1964), pp. 243 — 53.

(١٤) انظر :

Tacitus, The Agricola and the Germania, (Translated with an introduction By H. Mattingly, Penguin 1970), pp. 101 — 141.

سائدة وقت أن ظهرت هذه الملحمة[١٥] . وأنشـــودة رولان[١٦] التى تتناول بعض مراحل الصراع بين الفرنجة والمسلمين . وكذلك ملحمة السيد Poéma de Mio Cid وهى ملحمة شعرية من لون كان رائجا فى الأندلس طوال فترة الصراع بين المسلمين والمسيحيين وهى تدور حول السيد القنبيطور (رودريجو دياث) ، وهو شخصية تاريخية حقيقية ، وهو فى التاريخ يختلف عنه فى الملحمة[١٧] . كذلك فان لدينا أغنيـــات المآثر Chansons de geste التى هى عبارة عن قصائد ملحمية طويلة ترتبط بشمال فرنسا ، وكانت تصور أعمال البطولة وغيرها من جوانب حياة النبلاء الاقطاعيين . ومن المؤكد أنها كتبت لتسلية البلاط الارستقراطى ، وربما كانت عبارة عن قصص متداولة شفاها ثم تزايدت ببطء على مدى قرون ثلاثة قبل تدوينها فى أواخر القرن الحادى عشر أو بواكير القرن الثانى عشر . وكانت هذه القصائد مبنيـــة على الحوادث التى نعـــرف بعضها من المصادر التاريخية والتى حدثت فى الفترة الكارولنجية[١٨] .

هذه القصائد الملحمية ، التى كتبت لتسلية النبـــلاء الاقطاعيين الفرنسيين ، يفترض أنها تصور كبار السادة الاقطاعيين فى الشـــمال الفرنسى فى الصورة التى كانوا يحبون أن يروا أنفسهم فيها . وكانت النتيجة صورة مثالية للحياة الاقطاعية ، بيد أنها صورة يمكن التعرف عليها من خلال معلوماتنا عن الحياة الاقطاعية من المصادر غير الأدبية ،

---

(١٥) نورمان ف كانتور ، التاريخ الوسيط (ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم ، دار المعارف ١٩٨١) . جـ ١ ص ١٧٥ .

(١٦) جوزيف نسيم يوسف « انشودة رولان » ندوة التاريخ الاسلامى والوسيط ، المجلد الأول .

(١٧) الطاهر أحمد مكى ، ملحمة السيد ــ دراسة مقارنة (دار المعارف ١٩٧٩ م ، الطبعة الثانية) .

(18) Norman F. Contor, Medieval History-The Life and death of a Civilization (2 nd ed. Macmillan, New York 1929), pp. 378-379.

بل انها تؤكد هذه المعلومات تأكيدا حيا فى كثير من الأحيان • ان هذه الملاحم ترسم صورة للاقطاعيين وكأنهم زعماء المجتمع ، كما أنها تصور الامبراطور ـ الملك بعيدا فى أحسن الأحوال ، ولكنها غالبا ما تصوره ضعيفا وجلا • أما رجال الكنيسة فتصورهم على أنهم مجرد مساعدين للنبلاء الاقطاعيين • وتصور الفلاحين فى صورة القوة الاجتماعية التى يمكن تجاهلها ، فليس لهم من دور سوى أن يكدوا ويكدحوا من أجل سادتهم ، ثم تحصدهم مجازر الحروب الاقطاعية حين تنشب ، أما البورجوازيون (سكان المدن الجديدة) فانهم لا يكادون يظهرون فى صفحات هذه الملاحم • ومحور هذه الملاحم هو الولاء ، ودائما ما يكون الموضوع الذى بنيت حوله القصيدة مسألة تتعلق بالتبعية الاقطاعية ، وتحقيقها أو الخروج عليها • وهو الموضوع الذى نلمسه فى أنشودة رولان Chonson de Roland التى أشرنا اليها ،فالبطل واحد من الكونتات يفى بقسمه الذى قطعه لشارلمان حتى وان أدى ذلك الى موته المؤكد • وقصيدة راؤول دى كامبرى Raonl de Cambri ، التى تعتبر من أكبر القصائد قيمة لمن يؤرخ للحياة الاجتماعية فى تلك الفترة ، تدور حول المتاعب والعنف الذى ينتج حين يحرم الامبراطور واحدا من كبار اتباعه من الاقطاع الذى يدعى وراثته • وفى قصيدة راؤول تتجلى النزعة العدوانية عند النبلاء الاقطاعيين اذ يشترك البطل المخطىء فى عصيان دموى ومذبحة يروح ضحيتها رجال الكنيسة والبورجوازيون الأبرياء[١٩] •

والدراسة التاريخية الحديثة ، بمنظورها الاجتماعى الواسع ، لا تستطيع أن تتجاهل ما يحمله أدب القرن الثانى عشر فى أوروبا من دلائل على تغيرات شاملة فى العواطف والمثل والقيم التى تركت بصماتها على مجموعات بشرية هامة فى العصور الوسطى •

---

(19) Cantor, op. cit., p. 378.

ويضيق بنا المقام عن تتبع المزيد من الأمثلة الدالة على أن الشعر الملحمي يمكن أن يكون من بين مصادر المؤرخ التي يعتمد عليها في اعادة تصوير الماضي • وهنا نشير أيضا الى أن القصائد الفردية يمكن أن تكون ضمن مصادر المؤرخ أيضا ، بشرط مراعاة المحاذير المتمثلة في الرؤية الجزئية للشاعر ، وموقفه من الحدث الذي تحدثنا عنه قصيدته ، فضلا عن موقعه الطبقي واتجاهاته السياسية والفكرية ، وانحيازاته الاجتماعية •••وما الى ذلك • ولا ضير في أن نكرر أن الشعر مصدر هام للمؤرخ بالنسبة للجوانب الوجدانية والمعنوية اللا محسوسة في التـــــاريخ الانساني • وأهمية هذا المصدر تنبع من كونه مصدرا ذا طبيعة متفردة لا تشاركه فيها المصادر التاريخية الأخرى التي ظل اهتمام المؤرخين قاصرا عليها ردحا من الزمن طويلا • فالشعر تعبير وجداني عن عصر الشاعر • والشاعر ، بحاسته الفنية ، قد يتجاوز الحقيـــقة التاريخية الملموسة الى آفاق فنية بعيدة ، ولكنه على أية حال يظل أسيرا للقيـــم والمفاهيم السائدة في عصره ، وقد يكون تعبيره عنها ايجابيا اذا ما كان يتوافق معها ، وقد يكون هذا التعبير سلبيا اذا ما كان رافضا لها • وهو في الحالين يضع المؤرخ أمام دلالات هامة ، ربما لا نجد لها مثيـــلا في المصادر التاريخية التقليدية ، فالمدونات التاريخيـــة ، والوثائق ، والآثار ، والبرديات ، والمسكوكات ••• كلها تعيننا على الاقتراب من الحقيقة التاريخية المجردة ، ولكن الشعر (وغيره من فنون القول وفنون الشكل) هي التي تساعدنا على الكشف عن روح العصر • فضلا عن أن الشعر يمكن أن يكون مصدرا هاما للحوادث التاريخية الخالصة •

ومن ناحية أخرى ، فان الشعر بفنونه المختلفة كثيرا ما يكـــون بمثابة رجع الصدى للاحداث التاريخية • بمعنى أن الشاعر قد يجد في حادثة تاريخية ما ، أو في ظاهرة تاريخية بعينها ، ما يلهمه ويوقظ شيطان الشعر فيه ، فينظم قصيدته ، أو ينسج خيوط مسرحيته الشعرية، مستلهما تلك الحادثة أو الظاهرة التاريخية • ومن نافلة القول أن نردد أن الملاحم الشعرية التاريخية لم تنسج حول وهم أو خيال ، ولم يبدعها

الشاعر من لا بداية ، وانما ثمة من الأحداث التاريخية ما جعل الشاعر ينفعل بها ويسجلها فى قالب شعرى قصصى تتداوله الأجيال وتضيف اليه وتضفى عليه من مفاهيمها وقيمها وأخلاقياتها • وقد يأتى النتاج الشعرى فى شكل مسرحية شعرية ، أو قصيدة بسيطة • والشاعر فى كل الأحوال يقدم لنا ما يمكن أن نسميه التسجيل الفنى للحدث التاريخى • حقا أن الشاعر يستخدم أدواته الفنية وصياغاته الجمالية وينطلق من اسار الحقيقة التاريخية المجردة الى شكل فنى يكون اطارا لخياله ، ولكنه مع هذا يظل أسير الحدث التاريخى فى سياقه العام بحيث يكون عمله تسجيلا لهذا الحدث على نحو ما •

والشاعر الذى ترق أحاسيسه ويستشعر ما لا يستشعره العاديون من الناس ينفعل بالاحداث فيسجلها فى اطار فنى يغلفه الخيال ، وينطق بها تعبيرا عن موقفه الذاتى من الحدث ، وعن قطاع من الناس فى مجتمعه •

فقد سجل الشعراء اليونانيون القدماء كثيرا من أحوالهم التاريخية فى أشعارهم ومسرحياتهم ويكفى أن نشير الى كوميديات أريستوفانيس التى تعتبر من أهم مصادر معلوماتنا عن الحرب البليبونيزية ، وتقترب هذه الكوميديات فى أهميتها من كتاب ثوكيديديس عن هذه الحرب[٢٠] • ذلك أن أريستوفانيس يوضح فى مسرحياته كيف أن هذه الحرب الطويلة قد أضرت بكافة جوانب الحياة فى المجتمع الأثينى ، وكيف أن هذه الحرب قد أسرعت بهذا المجتمع صوب تدهوره النهائى • وترصد مسرحيات أريستوفانيس الكوميدية التأثيرات السلبية لهذه الحرب فى النواحى السياسية ، وكيف أن ظروف الحرب أفرزت قيادات من نمط عاجز • وهنا نجد أن الشاعر أريستوفانيس ، والمؤرخ ثوكيديديس يتفقان

---

(20) Tyucydides, The Peloponnesian war (translated by Rex Warner, with an Introduction and Notes by M. I. Finley), Penguin 1976.

على دور السمات المختلفة والمكانة الاجتماعية المغايرة لكل من بريكليس وخلفائه فى قيادتهم للشعب وعلاقتهم به • كما أن الشاعر والمـؤرخ يتفقان على صورة الدمار الاقتصادى المادى الذى خلفته الحـــرب البليبونيزية ، وتدميرها للريف ، والزراعة وآثارها السلبية على الصناعة والتجارة[٢١] • ومن يقرأ مسرحيات أريستوفانيس الشعرية الكوميدية يخرج بانطباع قوى مؤداه أن هذا الشاعر قد انفعل بالأحداث التاريخية المتمثلة فى الحرب ونتائجها المدمرة على المجتمع الأثينى فصاغ مسرحياته التى تسخر من افرازات الحرب من ناحية ، وتكشف عن موقفه من الحرب ونتائجها من جهة أخرى • لقد جاءت مسرحيات أريستوفانيس الاحدى عشرة نتاجا لموقف تاريخى ، ولكنها فى الوقت نفسه جاءت تعبيرا عن هذا الموقف التاريخى من زاوية معينة هى الزاوية التى يمثلها الشاعر •

وما يصدق على أريســتوفانيس وعصره يصـــدق على غيره من الشعراء والعصور • فقد تخلف عن عصر الحروب الصليبية تراث شعرى كبير ساهم فيه أطراف الصراع ، اذ ترك الشعراء العرب قصائد كثيرة ذات مدلول تاريخى[٢٢] • فقد جاءت تعبيرا عن ظروف المجتمع العربى الاسلامى فى تلك الآونة • فالقيم والاخلاقيات والمثل التى كانت تحكم السلوك الاسلامى فى مواجهة العدوان الصليبى ، وغيرها من التطلعات والآمال والجوانب الوجدانية ، نجد صداها بين أبيات القصـــائد التى

---

(٢١) عن هذا الموضوع تفصيلا ، انظر :

Maunira A. Karawan, Aristophanes, Political Thought-A Study of the Influences of the Peloponnesian war on the Athenian Society as Illustrated by Aristophanes, (M. A. Thesis, Cairo University 1982).

(٢٢) محمد سيد كيلانى ، الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام ، (لجنة النشر للجامعيين ١٩٤٩ م) ، ص ٢٠٨—٣٣٦ • والجدير بالذكر أن المصادر التاريخية العربية المعاصرة لفترة الحروب الصليبية تحفل بالكثير من الأشعار والقصائد التى قيلت فى مناسبات مختلفة أثناء تقلبات هذه الحروب •

خلفها لنا ذلك العصر الذى واجه فيه العالم العربى الاسلامى هجوما عنصريا تحت راية الصليب • وفى تصورنا أنه يمكن متابعة التاريخ المعنوى للناس فى ذلك العصر من خلال قصائد شعرائه، فمن الصدمة والاحباط واليأس الذى صحب نجاح الحملة الأولى وقيام مملكة بيت المقدس اللاتينية على التراب الفلسطينى وتخاذل الحكام العرب ، ننتقل مع الشعر العربى الى مرحلة أخرى نشعر فيها بأن روح الجهاد قد بدأت تسرى فى المنطقة العربية ، بحيث تفرز قادة وزعماء من طراز عماد « الدين زنكى » و« نور الدين محمود » وصلاح الدين الأيوبى الذى تمكن المسلمون بقيادته من استرداد بيت المقدس وتقليص المساحة الصليبية فى فلسطين الى حد كبير[٢٣] • فقد ازدحم الشعراء على خيمة السلطان صلاح الدين بعد استرداد القدس ، كل بقصيدته التى أعدها انفعالا بهذا الحدث التاريخى الجلل[٢٤] • وقد كانت القصائد التى قيلت فى هذه المناسبة من الكثرة بحيث عرفت فى مجموعها باسم القدسيات ، وهى مجموعة شعرية لها مكانة خاصة فى الشعر الأيوبى • ثم نجد الشعر العربى فى تلك الفترة يمجد قيم البطولة والجهاد ، ويكرس مثال البطل المسلم المجاهد فى مرحلة مطاردة فلول الصليبيين خلال العصرين الأيوبى والمملوكى الأول حتى يتم القضاء نهائيا على فلول الصليبيين فى

---

(٢٣) عن دور صلاح الدين فى حركة الجهاد أنظر :

ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية — سيرة صلاح الدين ، (تحقيق ونشر الدكتور جمال الدين الشيال) القاهرة ١٩٦٤ م العماد الكاتب الاصفهانى ، الفتح القسى فى الفتح القدسى (تحقيق ونشر محمد محمود صبح) القاهرة ١٩٦٥ . البندارى، سنا البرق الشامى (تحقيق الدكتورة فتحية النبراوى) القاهرة ١٩٧٩م. أبو شامة، الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، القاهرة ١٢٨٨ هـ. هاملتون أ.ر.جب، صلاح الدين الأيوبى — دراسات فى التاريخ الاسلامى (حررها يوسف أيبش) بيروت ١٩٧٣ م .

(٢٤) عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ، (دار الفكر العربى — الطبعة الثامنة ١٩٦٨ م) ، ص ٢٧٤—٢٧٥ .

أواخر القرن الثالث عشر الميلادى على يد الجيش المصرى بقيـــادة الأشرف خليل بن قلاون • والجدير بالذكر أن الكتابة التاريخية أيضا كانت تدور حول سيرة البطل فى تلك الفترة ، وهو ما نعتقد أنه كان تلبية للحاجات الثقافية فى ذلك العصر •

ولابد لمن يدرس أحوال المجتمع العربى الاسلامى فى عصر الحروب الصليبية أن يتعرف على أسماء شعراء من أمثال « ابن القيسرانى » ، و« ابن منير الطرابلسى » ، و« أبو الفضل عبد المنعم عمر بن حسان » الذى تنسب اليه قصائد كثيرة من القدسيات ، و« أبو الحسن على بن الجوينى » ، و« البهاء زهير » فضلا عن « أسامة بن منقذ » ••• وغيره من شعراء ذلك الزمان • ويذهب بعض الباحثين الى أن الشعراء العرب فى عصر الحروب الصليبية قد عبروا عن عواطف الشـــعوب العربية الاســـلامية آنـــذاك أصـــدق تعبيـــر ، وأن النفســـية العربيـــة الاسلامية فى مصر والشام قد سجلت فى قصائد ذلك العصر تسجيلا دقيقا « ••• فما يكاد المسلمون يستولون على حصن أو قلعة ، أو مدينة حتى يهب الشعراء لتهنئة الملك المنتصر ، والاشادة بمجهوداته العظيمة فى سبيل نصرة الاسلام والمسلمين ••• وما تكاد مصيبة تقع عـــلى المسلمين ، من سقوط حصن أو قلعةفىأيدى الافرنج أو وفاة عظيم من عظمائهم كصـــلاح الدين مثـــلا ، حتى ترى الشـــعراء ينوحون ويبكون ••• »(٢٥) •

ومن البديهى أن ذلك العصر الزاخر بالأحداث الجسام قد ترك بصماته على شعرائه وعلى قصائدهم بالقدر الذى يجعل من هذه القصائد مصدرا هاما من مصادر تاريخ ذلك العصر • ومن ناحية أخرى ، فان التراث الشعرى الذى خلفته لنا فترة الحروب الصليبية فى المنطقـــة العربية كان نتاجا أو صدى للحوادث التاريخية • فقد كان شعراء ذلك الزمان ينفعلون بالأحداث التى تجرى من حولهم ، ثم يسجلونها فى

---

(٢٥) محمد سيد كيلانى ، الحروب الصليبية وأثرها ، ص ٢٠٨ — ٢١٠ •

أطار فنى يناسبهم • والمعروف أن القصائد القصيرة التى تقـال فى المناسبات ذات الطابع التاريخى ، تكون عادة نتيجة لانفعال الشاعر ازاء الحدث • وغالبا ما تكون القصيدة الفردية أقرب الى الصحة التاريخية من الملحمة من حيث تقريرها للحدث التاريخى ، على الرغم من كونهـا تعبيرا عن ذات الشاعر أو جانب من عواطف الناس فى عصره ، حتى لو كان هذا التعبير جزئيا فى مداه •

وعلى الجانب الآخر ترك الشعراء المسيحيون الأرمن واللاتين كثيرا من الملاحم والقصائد ذات الدلالة التاريخية عن عصر الحروب الصليبية • فمن المعروف أن الأرمن قد تحمسوا كثيرا لحركة الصليبية• فعندما وصلت جيوش الحملة الصليبية الأولى الى قبادوقيا سـارع الأرمن بتزويد الصليبيين بالمؤن ، كما قدموا لهم الأدلاء ، وقد اعترف فوشيه دى شارتر (أحد شهود العيان ممن كتبوا عن هذه الفترة) بما قدمه الأرمن من مساعدة للصليبيين(٢٦) • وبغض النظر عن الأسباب التى دعت الأرمن الى هذا الموقف(٢٧) ، فان كلمات المؤرخين الأرمن والسريان حول هـذه الفترة تفيض بالعداء تجاه البيزنطيين والحماسة تجاه الصليبيين(٢٨) •

---

(26) Ahistory of the expedition to Jerusalem, 1095 — 1127 (translated with an introduction and edited by Harold S. Fink), Konxville 1969, p. 91.

(٢٧) حول هذا الموضوع انظر :
عبد الغنى محمود عبد العاطى ، السـياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور اليكسيوس كونين ١٠٨١—١١١٨م (رسالة دكتوراه غير منشورة — جامعة المنصورة ١٩٨١ م) ، ص ٢٢٦—٢٦٨ .

(٢٨) انظر على سبيل المثال حديث متى الرهاوى عن الحوادث التى جرت حول انطاكية وداخلها سنة ١٠٩٧ م •
R.H.C, Doc. Arm., I, pp. 32 — 34.
وحديثه عن البيزنطيين pp. 50 — 51 حيث يتهم البيزنطيين بالتخلى عن ايمانهم التى قطعوها على أنفسهم
« Mais ceux-ci renierent leurs surments ils avait promis, et ils se dédirent de leur parole . . ».
وهو نفس الموقف الذى نجده عند جورج القس Gregoire Le Prêtre الذى يبدو أنه كان تلميذا لمتى الرهاوى والذى أكمل حوليته انظر :
RHC, Arm., I, pp. 150 — 183.

ولسنا هنا بصدد بحث دور الأرمن فى الحروب الصليبية ، ولكننا نحب أن نشير الى أن هذه الحرب التى وصفها كتابهم بالحرب المقدسة، قد حركت فى بعضهم كثيرا من الأحاسيس والمشاعر الدينية والحماسية، فكتب بعضهم أشعارا عن أحداث الحروب الصليبية فى مراحلها المختلفة، جاءت انفعالا بهذه الأحداث من ناحية ، كما أنها تعتبر من المصادر الهامة فى تاريخ الحركة الصليبية من جهة أخرى .

وثمـة شـــاعر أرمـنى هو « ســان نرســيس الرحيــم » Saint Nersès Schnorhali (le Gracieux) وقد عــرف بالرحيــم Gracieux بسبب رقة شخصيته وأسلوبه الذى يفيــض عذوبة ونعومة(٢٩) . وهو واحد من ألمع كتاب الأدب الأرمنى، جمع بين اللاهوت، والبلاغة والشعر . وقد كتب هذا الشاعر مرثية فى سقوط الرها التى استعادها عماد الدين زنكى من الفرنج بعد سيطرة دامت حوالى ست وأربعين سنة. وقصيدة نرسيس تعتبر الوثيقة الوحيدة التى تصــف حصار الرها على يد قوات عماد الدين زنكى . والقصيدة من النــوع الملحمى تتألف من ألف وثلاثمائة وثمانية وخمسين بيتا (١٣٥٨) وفى هذه القصيدة الملحمية جسد الشاعر مدينة الرها وجعلها تتحدث عن نفســها وتخاطب فيها الأخوات والأخوة المسيحيين فى شتى أنحاء الدنيا ، فى المدن والريف ، مذكرة اياهم بمكانتها فى المسيحية وتدعوهم الى نصرتها ونجدتها . والقصيدة عبارة عن سرد تاريخى فى معظمها ، وعلى الرغم من بعض الأخطاء التاريخية ، فان القصيدة تبدو نوعا من السرد التاريخى المنظوم ، حقيقة أنها تنحاز الى الجانب المسيحى ، ولكن نصيب الخيال يظل قليلا فيها . فهو يتحدث عن آلات الحصار ، ومكونات جيــش

---

(٢٩) هو رابع بطرك أرمنى يحمل هذا الاسم ، كان اخوه بطريركا سنة ١١١٣ م ... وصحبه معه الى مجمع دينى فى القدس سنة ١١٣٦ م، وتولى البطريركية سنة ١١٦٦ م ، وكانت وفاته سنة ١١٧٢ م عن خمس وسبعين سنة . انظر :
RHC., Arm., I, p. 223.

عماد الدين زنكى ، وتكتيك المسلمين فى الحصار ، حتى انه يتحدث عن الموسيقى المستخدمة فى الجيوش الاسلامية والكوسات التى تدق لاثارة الحماسة فى صفوف الجند • وفى آخر القصيدة يتحدث عن محاولات الفرنج لاستعادة المدينة •• ثم يختتمها بخبر الرسالة التى أرسلها زنكى الى الخليفة العباسى مبشرا بسقوط الرها(٣٠) •

وهناك شاعر آخر هو البطريرك جريجورى الابن ، أى ابن أخى نرسيس صاحب مرثية الرها ويعرف باسم جريجورى الابن Le Patriarch Gregoire DGh'A (٣١) • وقد كتب مرثية عن سقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبى فى ألفين وثلاثمائة وأربعة وتسعين بيتا ، وهو فى هذه القصيدة يريد تقليد نرسيس فى مرثيته التى نظمها بمناسبة أخذ الرها ، كما أنه استخدم الأساليب الفنية نفسها • والقصيدة أيضا من النوع الملحمى الذى يستخدم السرد التاريخى ، اذ أن القصيدة على لسان القدس تخاطب كل المحبين والمخلصين ، وتقول عن نفسها :

Je Suis La Jerusalem antique	أننى القدس العتيقة
Metropole de la Palestine	عاصمة فلسطين
Le Centre de L' univers	ونقطة الدنيا الرئيسية
La Point Principal du Monde	مركز العالم

ثم تستمر القصيدة للتحدث عن صلاح الدين وأحداث معركة

---

(30) RHC., Arm., I, pp. 223 — 278.

(٣١) كان جريجورى الابن هذا من المهتمين بصالح المسيحية ، وبذل محاولات فى سبيل توحيد الكنيسة البيزنطية والأرمنية ، ولكن الامبراطور مانويل كومنين لم يلق لها بالا . وكانت وفاته سنة ١١٨٩ فى سن السابعة والخمسين بعد ستة عشر عاما على كرسى البطريركية . وقد خلف لنا ستة خطابات أو سبعة ، احدها هو مرثيته للقدس . انظر :
RHC., Arm., I, pp. 269 — 271.

حطين ، وسيطرة صلاح الدين على بلاد الشام ، بحيث صارت دمشق مركز عملياته • وعلى الرغم من انحيازاته الدينية التى تجعله يخلط بين المسيح الدجال وصلاح الدين ، فان القصيدة تعتبر انعكاسا جيدا لصدى سقوط بين المقدس عند الأرمن[٣٢] •

أما الشعراء اللاتين ، والفرنسيون على نحو خاص ، فقد تركوا لنا مجموعة من الأشعار حول الحركة الصليبية تصلح أن تكون مقياسا هاما لتطور الفكرة الصليبية فى الوجدان الأوربى منذ البداية وحتى نهاية الوجود الصليبى على الأرض العربية • ولعل من المناسب أن نبدأ بالقصيدة الملحمية المعروفة باسم « أنشودة انطاكية » La Chanson d' Antioche ، وهى افراز شعرى للحركة الصليبية فى مجتمع غرب أوربا آنذاك من جهة ، وتعبير عن مكانة الفكرة الصليبية فى وجدان الناس فى بداية الحركة من جهة أخرى • وهذه القصيدة من النوع الملحمى الذى لا نعرف مؤلفه على وجه اليقين[٣٣] والقصيدة تدور حول أحداث الحملة الصليبية الأولى ، منذ البداية وحتى سقوط أنطاكية فى أيدى الصليبيين • ويبدو من عدد المخطوطات التى تحمل نصوصا لهذه الأنشودة أنها كانت متداولة على نطاق واسع فى غرب

---

(٣٢) انظر النص الكامل للقصيدة :
RHC, Arm., I, pp. 271 — 307.

(٣٣) لا نعرف سوى اسمه فقط «Ricars Le Pelerins» وكونه حاجا لا توضح تماما أنه كان ضمن الحملة الصليبية فكلمة Pelerins تعنى بالضبط «مسيحى غربى فى رحلة حج الى بيت المقدس ضمن مجموعة مسلحة» • ويرى بعض الباحثين أنها كلمة تقابل كلمة صليبى ، انظر :
Lewis A.M. Sumberg, La Chanson d'Antioche — Etude historique et Littraire (paris 1968), p. 318.

وقد تعرضت القصيدة الأصلية لعدة اضافات وتعديلات اضافها Graindoe de Douai الذى وقع باسمه على عد من المخطوطات الباقية للقص
(Ibid, pp.. 162 — 163)

أوروبا وفى فرنسا على وجه التحديد ، فهناك روايات لهذه الأنشودة جاءت الينا مدونة باللهجة البروفنسالية[٣٤] •

والقصيدة تتناول فى بدايتها ثلاثة موضوعات هى أصول الفكرة الصليبية ، وأسطورة بطرس الناسك ، ثم ما حدث فى كليرمون فى نوفمبر ١٠٩٥ • وتحدثنا القصيدة عن حج بطرس الناسك وتحكى لنا بعض الأعمال الاسطورية المنسوبة اليه ، ثم تسرد لنا بعض أحداث الحملة الشعبية • بيد أن الشاعر يصدمنا بأن كافة التفاصيل الواردة فى الأنشودة عن بطرس الناسك والحملة الشعبية مضطربة الى أبعد الحدود ، اذ أن القصيدة — على سبيل المثال — تجعل نبوءة بطرس الناسك ورحيل الحملة الشعبية قبل مجمع كليرمون[٣٥] • وتواصل الأنشودة حديثها عن الوقائع والأحداث التاريخية ، ويتجاهل الشاعر أعمال السلب والنهب التى ارتكبها الصليبيون ابان اقامتهم فى القسطنطينية ، فهو يحدثنا عن الهجوم الكبير الذى شنه صليبيو الحملة الشعبية على نيقية مما نبه سليمان بن قطلمش الى غزوتهم • والأنشودة تتفق فى هذا مع أنا كومنينا[٣٦] ومع المؤرخ المجهول صاحب أعمال الفرنجة Gesta Francorum [٣٧] • ثم تعاود الأنشودة الغوص فى الخيال الذى يجعل الشاعر يخلط بين الحوادث وبعضها ولا يلتزم بالسياق الزمنى الحقيقى •

---

(34) Paul Meyer, «Fragment d'une Chanson d' Antioche en Provinsal», Archives de L, Orient Latin, (Paris 1884), Tom. II, pp. 466 — 509.

(35) Sumberg, La Chanson d'Antioche, pp. 146 — 154, 156.

(36) The Alexiad of Anna Comnena, (Translated From Greek by E.R.A. Sewter) Pengnin 1979, p. 312.

(37) The Deeds of the Franks and other Pilgrims to Jerusalem, (Edited by, Rosalind Hill, New York 1962), pp. 3 — 4.

تتحدث الأنشودة بعد ذلك عن رحيل الجيوش الصليبية المنظمة ، أو جيوش الأمراء ، الى الأرض المقدسة ، ويحكى الشاعر كيف أن جودفرى كان أول من انطلق الى القسطنطينية بعد أن استكمل استعدادته[٣٨] • وأخيرا وبعد عدة حوادث يحدثنا الشاعر عن الاستيلاء على انطاكية والخلاف الذى نشب بين بوهيموند وكونت سان جيل حول تولى الحكم فى انطاكية ، وتنتهى أبيات القصيدة بالحديث عن انتصار الصليبيين على قوات قربوغا[٣٩] •

ويهمنا فى هذه الدراسة أن نركز على موضوع الفكرة الصليبية وتطورها فى وجدان المسيحية الكاثوليكية من خلال متابعتنا لشعر الحركة الصليبية • ومن ثم ، فاننا سنغض النظر عن الأحداث التاريخية المتنوعة التى تحكيها أنشودة أنطاكية ، فقد تمت دراستها وتحقيقها بشكل جيد على يد لويس سومبرج فى كتابه « أنشودة انطاكية — دراسة تاريخية وأدبية » الذى أشرنا اليه فى هوامش البحث • واذا كان علماء تاريخ العصور الوسطى لم يقولوا كلمتهم بعد حول موضوع أصول الفكرة الصليبية وتطورها ، فان ذلك راجع فى أساسه الى صعوبة البحث فى مثل هذه الموضوعات التى تتعلق بجوانب فكرية ووجدانية يصعب تتبع آثارها • ومن ناحية أخرى ، فاننا نرى الفرصة متاحة للمشاركة فى دراسة هذا الموضوع من زاوية جديدة ، هى الزاوية الوجدانية • فان الشعر تعبير وجدانى عن مدى تعلق الناس بالفكرة أو رفضهم لها ، وحماستهم أو فتورهم تجاهها • وسوف نحاول فى هذا الجزء من دراستنا أن نرصد تطور الفكرة من خلال قصائد الحروب الصليبية التى أنشدها شعراء الغرب اللاتينى طوال القرنين الثانى عشر والثالث عشر•

تبدأ أنشودة انطاكية بأبيات تعالج أصل الفكرة الصليبية • ولكى يشرح الشاعر لنا أصل هذه الحملة الكبرى يقول على لسان الراوى ان

---

(38) Sumberg, op. cit., pp. 171 sq.
(39) Ibid, pp. 266 — 275.

على المرء أن يكون عارفا بعصيان أبوينا الأولين ، آدم وحواء ، هذا العصيان الذى جاء المسيح بسببه لفداء البشرية وتخليص الناس من الخطيئة الأولى :

Seigneur, Or escoutés qui ecris nous dist :

Bien vous dois rememberez de Dieus qui vous fist

Et quant il vous at fait, en tel vous mist.

Jamais N'eiissiés Pain d'Adame nel forfesist

Son fil tramist en terre qui d'enfer vous traisist

Apres livra sa char que on ne crois pendist.,

Pilates ne Juis ni ot uns nel laidist

Puis nous ama-il tant que Le suen nom nous mist,

Crestien avons nom et lui L'apelons Crist. (٤٠)

فهو فى هذه الأبيات يطلب من السادة السامعين أن ينصتوا جيدا لما يقوله الكتاب الذى ينبههم بأنه لا ينبغى لهم نسيان ما فعله الرب من أجلهم ، فبسبب آدم وعصيانه وخيانته ، نزل ابن الرب الى الأرض لكى ينقذ الناس من جهنم ، وسلم جسده على الصليب ولكن بيلاطس أو اليهود لم يستطيعا تشويهه وقد اختار لأحبائه اسم المسيحيين ، وسمى نفسه المسيح • ثم تستمر القصيدة ، بعد هذه الأبيات لتتحدث عن صلب المسيح ، وينتقل الشاعر الى تحديد البلد الذى سيكون له شرف الانتقام المقدس لصلب الرب فيقول :

Li Franc auront la terre tote deliverment

Et qui pris et fines iert en cel errent. (٤١)

هكذا تكشف القصيدة عن أن الحملة الصليبية هى أمر من الرب نفسه ، وأن الفرنج هم الشعب الذى اختاره الرب لكى ينتقموا لموته ويخلصوا ضريحه من أيدى الكفار • والحقيقة أننا نستطيع أن نلمس

---

(40) Sumberg, op. cit., p. 140.
(41) Loc. cit.

توافقا وانسجاما بين ما تقوله الأنشودة فى هذا الصدد ، وبين ما أورده المؤرخون عن خطبة البابا اربان الثانى فى كليرمون فى نوفمبر سنة ١٠٩٥[٤٢] • وفى ضمير الشاعر صاحب أنشودة انطاكية أن المجتمع المسيحى Societas Cheistiana ، انما هو الوطن الفرنجى •

ومن ناحية أخرى فان الشاعر هنا يحاول تبرير الحرب الصليبية باعتبارها « حربا عادلة bellum justum » ، وهو نفس ما يردده المؤرخون المعاصرون مثل جيوبرت النوجنتى[٤٣] الذى كان يرى فى الحملة الصليبية مشروعا مقدسا ، وأن الرب بنفسه هو الذى شرع الحرب المقدسة ، وهو الذى سار على رأس الجيش المسيحى ، أما المؤرخ المجهول فيقول انه حين جاء الوقت الذى حذر المسيح منه أفراد شعب المؤمنين ، لا سيما فى الانجيل حيث يقول : « ان أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى »[٤٤] ، كان ثمة شوق فى البلاد الفرنجية[٤٣] • هذه الفكرة نفسها موجودة عند فوشيه دى شارتر[٤٦] وغيره من مؤرخى تلك الفترة •

والحقيقة أننا نستطيع أن نورد عشرات التعبيرات الواردة فى المصادر التاريخية والحوليات والتى تصف الصليبيين بأنهم « فرسان المسيح » ، و« رجال المسيح » و« أولئك الذين يشكلون جيش

---

(٤٢) انظر رواية كل من فوشيه دى شارتر ، وروبير الراهب ، والمؤرخ المجهول ، وبلدريك الدوللى ، وجيوبرت النوجنتى لخطبة البابا اربان الثانى فى

Edward Peters (ed.), The First Crusade-The Chronicle of Fulcher of Chartres and other source Materials (Univ. of Pennsylvania Press 1971), pp. 2—16.

(43) R.H.C, Occ. IV, pp. 124 sq.

(٤٤) متى : ١٦ : ٢٤ •

(45) The deeds of the Franks, pp. 1—2.

(46) Ahist. of the expedition to Jerusalem, pp. 66—67.

المسيح » ، « الشعب المقدس » و« شعب الرب » • ومن خلال هذه الأمثلة وغيرها مما تحفل به المصادر التاريخية يجعلنا نؤكد أن أنشودة انطاكية ، وهى تحاول تبرير الحرب الصليبية على أسس مقدسة ، كانت تعبيرا حقيقيا الى حد كبير عن الحال الوجدانية فى الغرب آنذاك ، لقد كانت الحماسة الدينية الصليبية مشتعلة فى صدور ونفوس الناس ، فقد أتاحت لهم فرصة الخروج الكبير الى فلسطين « الأرض التى تفيض باللبن والعسل » لكي يحققوا أطماعهم الدنيوية تحت ستار دينى ، لقد كانت المسيرة الصليبية مسيرة قوم يحدوهم الأمل الدينى والطمع الدنيوى فى آن واحد • ومن ناحية أخرى ، كان الفرنج آنذاك يعتقدون أنهم أمة مفضلة على سائر الأمم المسيحية ، وأنهم الشعب المختار Le people êlu وكلمة مختار هنا êlu تعنى أنهم كانوا الأداة التى يريد الـرب بواسطتها تحقيق ارادته على الأرض[٤٧] ، وهذا هو بالضبط ما يقوله جيوبرت النوجنتى[٤٨] ، اذ يقول « ••• أننى أعرف ••• ولن يعارضنى أحد أن الرب بنفسه قد اختار الوطن الفرنجى لهذه المهمة العظمى •• »، وهو نفس الكلام الذى يردده متى الرهاوى الذى يقول « ••• فى الوقت المحدد من قبل ، وفى المكان المعلوم ، انفتح باب الرومان لأن الرب كان يريد هزيمة الفرس بأيديهم •• »[٤٩] •

وأما فيما يتعلق بالانتقام الذى كان الرب المصـلوب قد أمـر المؤمنين بتوقيعه على « الوثنيين المخذولين » ، فان أنشودة أنطاكية ، لم تكن سوى انعكاس أمين للتفكير الشعبى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر • ولابد أن نعترف بأن العامل الدينى كان موجودا فى الحركة الصليبية ، ولكنه كان نابعا من تدين عاطفى يقوم على التعصب المقيت ، ولم يكن تدينا عقلانيا حقيقيا • ذلك أن الجو الذى أشاعته

---

(47) Sumberg, la Chanson d'Antioiche, pp. 143 — 144.

(48) RHC. occ., IV, p. 136.

(49) RHC., Arm. I, p. 24.

الدعاية البابوية المسعورة ضد المسلمين ، واذكى المبشرون الجوالون من أمثال بطرس الناسك نيرانها جعلت نفوس المسيحيين الكاثوليك تضطرم بالرغبة فى قتل المسلمين الذى شاعت عنهم قصص تدمير الكنائس وقتل المسيحين وتعذيبهم ، ولا شك فى أن بعض الناس قد حملوا شـــارة الصليب أملا فى نيل الغفران والدخول فى رحمة الرب • وفى تصورنا أنه فى مجتمع مثل غرب أوربا فى أواخر القرن الحادى عشر ، حيث يبسط الجهل رداءه على المجتمع ، وحيث الأريج الثقافى مزيج من المفاهيم الدينية الغامضة والخرافات والخزعبلات ، لابد أن تكون الدعوة الى حرب تحت راية الصليب دعوة ناجحة ، وأن تكون الاستجابة لمثل هذه الدعوة قوية ، بل هستيرية ، وهو ما حدث بالفعل • ففى هـــذا الجو المحموم تشيع أنباء عن الرؤى والأحلام المقدسة والنبوءات ، وتجـــلى القديسين والقديسات ، فضلا عن النجوم التى تتساقط من السماء(٥٠) • وفى هذا الجو الذى تحكمه المفاهيم الألفية وتوقع قيام القيامة ، كان لابد من ربط الحركة الصليبية بالخلاص وحادثة صلب المسيح وانتظار مجيئه الثانى ، وهو ما يبدو واضحا فى كتابات المؤرخين وفى أنشـــودة أنطاكية على حد سواء •

ان الفكرة الصليبية تبدو حية قوية فى ثنايا أبيات أنشـــــودة أنطاكية ، وهى بهذا تعكس الحال الوجدانية قبيل وأثناء الحملة الطليبية

(٥٠) كانت الأحوال الاجتماعية السيئة للفلاحين الذين كانت حياتهم عابسة وغير آمنة من أهم أسباب نجاح الدعوة الصليبية أيضا ، انظر :

L'An Mille-Oeuvres de : Luitprand, Raoul Glaber, Ademar de Chabannes, Adalberon, et Helgaud, (Traduites et peésentées par : Edmond Pognon ., France 1947). Painter, S., A history of the Middle Ages (England 1953), pp. 118—122., Hans Eberhard Mayer, The Crusades (translated from German by John Gillingham), Oxford University Press 1972, pp. 22—23., K.M. Setton (ed.), A history of the Crusades, (Philadelphia 1955), vol. I, p. xx.

أيضا : كانتور ، التاريخ الوسيط ، ج ١ ، ص ٣٤٥ — ٣٦٨.

الأولى • فهل ظلت الفكرة على قوتها وحيويتها طوال عصر الحروب الصليبية فى غرب أوربا ؟ هذا ما سوف نحاول الاجابة عليه من خلال متابعتنا لشعر الحركة الصليبية الذى صاغه الشعراء حول كل من الحملات المعروفة •

والحقيقة أن الأغنيات أو القصائد التى قيلت بمناسبة الحركة الصليبية كثيرة ومتنوعة ، وهى تخلط بين الموضوعات السياسية والدينية والموضوعات العاطفية ، بحيث أننا لا نستطيع أن نضعها فى جانب دون الآخر • والسبب فى كثرة أغنيات الحروب الصليبية وقصائدها راجع الى أن الحملة الصليبية الأولى قد ولدت فى زمن كان الشعر العامى قد ازدهر فى شمال فرنسا وجنوبها • ومن ناحية أخرى ، ساعدت القصص الخيالية عن حروب شارلمان ضد المسلمين على بقاء ذكريات الحرب المقدسة فيما وراء البحار Outre-mere • فضلا عن أن التأليف التاريخى بالشعر كان يهدف الى تلبية حاجة ثقافية فى المجتمع الفرنسى آنذاك ، فقد تم تأليف التواريخ المنظومة شعرا لمن لا يعرفون اللغة اللاتينية ، ومن سوء الحظ أن هذه الصياغات الشعرية التاريخية لم تصلنا ، اما بسبب ضياعها ، واما بسبب التغييرات الكثيرة التى طرأت عليها بحيث جاءت فى صياغات مغايرة تماما لصياغتها الأصلية[٥١] • ومن هذا الشعر لدينا قصيدة تعرف باسم « أنشودة القدس La Chanson de Jerusalem » ، وهى عبارة عن حكاية شعرية فرنسية تحكى مغامرات جودفرى البويونى Godefroi de Bouillon فى الحملة الصليبية الأولى • ومن المناسب أن نشير الى أن الشاعر مجهول الاسم والجنسية[٥٢] •

---

(٥١) انظر ما سبق فى الحديث عن أنشودة انطاكية .

(52) Un Récit en vers Francais de la Prémiere Croisade fondé Sur Baudri de Bourgueil, notices et extraits d'après les manuscrits d'Oxford et de Spalding, Par : Paul Meyer (Paris 1976), pp. 1—7.

وعلى الرغم من أن هذه القصيدة تهتم أساسا بالتركيز على جودفرى وما جرى له ، فانها تمدنا ببعض التفاصيل عن الحملة منذ بدايتها وتطوع النبلاء لحمل شارة الصليب ، والألمان واللمبارديين ، ثم تحدثنا عن العلاقات مع البيزنطيين وتتهم الامبراطور اليكسيوس كومنينوس بمحاولة تثبيط عزائم الصليبيين[٥٣] • وفى بقية أجزائها تركز على دور جودفرى فى الحملة التى انتهت بالاستيلاء على بيت المقدس •

هذه القصيدة أيضا تعكس مدى تأجج الحماسة الصليبية بانحيازاتها المتعصبة فى صدور أبناء الغرب الأوربى آنذاك • ولدينا طائفة كبيرة من القصائد الشعرية التى اصطلح العلماء على تسميتها بأغنيات الحروب الصليبية Les Chansons de Croisade وهى تغطى بقية عصر الحروب الصليبية[٥٤] • هذه القصائد تشى بمدى تطور الفكرة الصليبية فى الوجدان الغربى آنذاك ، وهى تجمع بين أغنيات تتحدث عن التطوع لحمل شارة الصليب والذهاب الى الأرض المقدسة ، وأخرى تشرح لنا الظروف الوجدانية السائدة فى غرب أوربا آنذاك ، وأغنيات غيرها تجمع فى طياتها بين الحب والحرب ، فالشاعر بحكم واجبه الصليبى عليه أن يرحل ، ولكنه لا يملك سوى أن يأسى لفراق محبوبته ، وتكشف لنا مثل هذه الأغنية عن الصراع بين الواجب والعاطفة ، وهو صراع يؤرقه لكنه لا يملك ازاءه شيئا • وفى بعض الأغنيات نجد الشاعر الفارس يخاطب حبيبته مودعا ، كما تكشف أغنيات أخرى عن أن المحبوبة هى التى تبكى فراق حبيبها ورحيله الى الأرض المقدسة • هذه الاغنيات ، جميعا ، تشترك فى انها تدعو الى الحركة الصليبية ، وفيها مواقف تتكرر ومناقشات يتم تعديلها حسب مقتضيات الزمان والمكان بحيث تبدو نتاجا شعريا جديدا[٥٥] •

---

(53) Ibid, pp. 12 — 21.

(54) Joseph Bédier et Pierre Aubry, Les Chansons de Croisades avec leurs Mèlodies, (Paris 1909 — Hitkine reprints 1974).

(55) Ibid, pp. Ix — x.

بيد أن هذه الأغنيات نفسها ، فى تطورها الزمنى ، تكشف عن تضاؤل الاهتمام بالحركة الصليبية ، وانصراف الظهير الأوربى عن مساندة الكيان الصليبى بفعل التطورات الجديدة التى طرأت على المجتمع الأوربى ، والمشاكل التى استنفدت جل الطاقة الأوربية فى حلها داخل الغرب اللاتينى نفسه •

والقصيدة الأولى فى أغنيات الحروب الصليبية تتعلق بالحملة الصليبية الثانية • فقد كان ملك بيت المقدس آنذاك صبيا فى الخامسة عشرة من عمره ، عندما حدث فى عيد الميلاد سنة ١١٤٤ م أن قام عماد الدين زنكى بالاستيلاء على الرها[٥٦] • وقد أفرخت هذه الكارثة التى حلت بالمسيحية الغربية نبوءة سان برنار دى كليرفو Saint Bernard de Clairvaux ، وعدة قصائد من بينها هذه الأغنية• وفى الخامس والعشرين من ديسمبر ١١٤٥ م قام لويس السابع بعقد مجمع من الأساقفة والبارونات فى بورج Bourges ، وأعلن عن عزمه على التوجه فى حملة صليبية ، ولكنه واجه مقاومة عنيفة من الحاضرين ، وتم تعديل القرارات فى مجمع جديد فى فيزلاى Vezelay • وفى مارس ١١٤٦ م وافق البابا أيوجين الثالث على مشروع الملك ، وعين برنار أسقف كليرفو (سان برنار) مبشرا وداعية للحملة • ولقيت دعوة برنار ترحيبا حارا ، وذهب برنار يبشر بحملته فى ألمانيا ، وفى ٢٨ ديسمبر من هذه السنة أعلن الامبراطور كونراد الثالث أنه يأخذ

---

(٥٦) يعتبر استيلاء عماد الدين زنكى على الرها سنة ١١٤٤ من أهم أحداث الحركة الصليبية ، وقد حكاه بتفاصيل طويلة ، أو مقتضبة المؤرخون الشرقيون والغربيون على التوالى ، انظر عن هذا الموضوع :

M.J.B. Chabot, «Un Episode de L'histoire des Croisades», Mellanges Offerts à M. Gustave Schlumberger à L'occasion du quatre - Vingtiéme anniversaire de sa naissance, 17 oct. 1924, (Paris 1924), pp. 169 — 179.

حيث يعرض تفاصيل جديدة لهذه الحادثة وصفها شاهد عيان كتب مؤرخة ولكنه مجهول الاسم •

شارة الصليب • وأخيرا ، وفى الثانى عشر من يونيو ١١٤٧ أنطلق لويس السابع على الطريق الى القدس ••• وفى ظل هذه الظروف تم تأليف هذه الأنشودة فماذا تقول ؟

تتحدث الأنشودة عن أن المسلمين قد استولوا على أرض الرب التى كان يعبد فيها ، ثم تتساءل عمن سوف يصحب لويس ، وعمن يخشى نار جهنم ، ثم تؤكد على فكرة أن من يختار الذهاب الى هناك ستكون الجنة مقرا له مع الملائكة ومع الرب • وتدخل القصيدة فى خضم الدعوة الصليبية أكثر حين تقول كلماتها :

لقد أخذت الرها ، وعليكم انقاذها

Pris est Rohais, ben le savez

مم يخشى المسيحيون

Dunt Crestiens sunt esmaiz

لقد نهبت الكنائس ودمرت :

Les mustiers ars e desertez :

ولم يعد أحد يضحى للرب هناك

Deus n'i est mais sacrifiez

أيها الفرسان فلتفكروا فى ذلك ،

Chivalers, Cher vus purpensez.,

أنتم يا من تمسكون السـلاح ،

Vus Ki d'armes estes preisez.,

قدموا أجسادكم هدية لمن

Acelui voz cors Presentez

من أجلكم رفع على الصليب

Ki pur vus fat en cruiz drecez

وتمضى القصيدة لكى تستحث النبلاء على أخذ شارة الصليب والتشبه بلويس الذى رغم كونه غنيا وقادرا ، وملكا متوجا على الجميع ، هجر ملكه وترك مظاهر العز من أجل الرب الذى تحمل العذاب على الصليب من أجل المسيحيين ، وتحمل القصيدة فى مقطعها الرابع دعوة للأنتقام

من أعداء الرب ثم تتحدث فى القسم الخامس عن أن الجحيم والفردوس هناك • أما المقطع السادس فيتحدث عن أن الرب قد حدد موعدا للقاء فى الرها ، حيث سيغفر خطايا من يجيئون الى هناك فى خدمته(٥٧) •

هذه المفاهيم الواردة فى القصيدة عن الذهاب فى الحملة الصليبية من أجل الرب ، والوعد بالغفران لمن يذهب الى الأرض المقدسة فى خدمة الرب ، تشى بأن المفاهيم والمثل التى تشكل الفكرة الصليبية كانت ما تزال قوية فى الوجدان الأوربى عندما خرجت الحملة الصليبية الثانية • لقد كان سقوط الرها صدمة نفسية مؤلمة ونذير شؤم للصليبيين ولهذا سارعت أوربا الى تقديم العون الى المستوطنين اللاتين فى الشرق •

كانت محاولات زنكى هى بداية الحركة الاستردادية الاسلامية ، وقد بلغت هذه الحركة قمتها على يد السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى استطاع أن يوحد الجبهة العربية الاسلامية ، وأنزل بالصليبيين هزيمة فادحة فى معركة حطين فى الرابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ (٤ يوليو ١١٨٧) • وبعد حطين بدت قوات المسلمين وكأنها فى نزهة عسكرية اذ توالى سقوط المدن والقلاع الصليبية بسهولة وسرعة • وفى أكتوبر من نفس العام عادت بيت المقدس مدينة اسلامية مرة أخرى بعد ثمانية وثمانين عاما من الأسر اللاتينى ••• ولم يتبق بأيدى الصليبيين سوى صور وأنطاكية وطرابلس ، وبعض القلاع المتناثرة على أرض الشام •

وكانت الحملة الصليبية الثالثة تجسيدا لرد الفعل الأوربى تجاه سقوط بيت المقدس • وكان على رأسها ثلاثة ملوك أوربيون كبار : فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا العجوز ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا اللاهى العابث المخادع ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا المتهور •

---

(57) Bedier, les chansons de Croisade, pp. 1—15.

وبعد تقلبات عديدة كان حصاد هذه الحملة ضعيفا بالشكل الذى أدى الى مزيد من الانتقادات ضد الحركة الصليبية • لقد كشفت الحملة الصليبية الثالثة عن أن اهتمام ملوك أوربا وحكامها بمصير الصليبيين فى الشرق قد أخذ يتراجع أمام المشكلات والهموم والمصالح التى فرضت نفسها عليهم داخل أوربا[٥٨] •

ولدينا تسع أغنيات صليبية تدور حول الحملة الثالثة[٥٩] • والأغنية الأولى فى هذه الأغنيات التسع تبدو قريبة تماما فى مضمونها من الأغنية التى عرضنا لها عن الحملة الصليبية الثانية، فهى أيضا تتحدث بمصطلحات عن وجوب الذهاب الى الأرض المقدسة حيث الحب الحقيقى للرب الذى صلب فداء للبشر • ولكن اللافت للنظر فى هذه الأغنية أنها تتعمد وصف تفاصيل آلام المسيح على الصليب بشكل مطول كما أنها من ناحية أخرى تتحدث عن العذاب الذى ينتظر أولئك المتقاعسين عن نصرة سيدهم[٦٠] ونخرج من قراءة هذه القصيدة بانطباع أن الناس كانوا معرضين عن المشاركة فى هذه الحملة ، أو أنهم على الأقل لم يكونوا جميعا على نفس المشاعر التى كانت سائدة ابان أحداث الحملة الأولى ، فهذا الالحاح على مسألة صلب المسيح ، ثم التهديد الكثير لمن يتخلف ويفكر فى الدنيا والمستقبل ، انما يدل على أنها أمور كانت تعوق حركة الدعاية الصليبية بشكل أو بآخر •

أما الأغنية التالية ، فانها تنقلنا الى عالم وجدانى جديد يجمع بين الحب والحرب ، ويتناول موضوع الصراع بين العاطفة والواجب الصليبى ، يقول المقطع الأول من هذه القصيدة الغنائية :

وأسفاه ! ياله من فراق أيها الحب
سيكون على أن أفارق أحسن من أحببت

---

(58) Cantor, Med. Hist., pp. 328 — 329.
(59) Bedier, op. cit., pp. 17 — 118.
(60) Ibid, pp. 17—24.

لعل الرب برحمته يعيدنى اليهـا
غير أنى حقا أفارقها لأداء واجب عظيـم
ما أتعبنى ، اننى لا أجد ما أقوله •
أننى لم افارقها على الاطـلاق :
فاذا كان الجسد ذاهبا لخدمة سـيدنا
فان القلب يبقى فى خدمتها ، بكامله(٦١)

فى هذه القصيدة نجد الشاعر يتحدث عن سفره الى سـوريا « لأن أحدا لا يجب أن يخذل خالقه »(٦٢) فهناك ينبغى للمرء أن يظهر فروسيته ، فهناك الفردوس والشرف وثناء الحبيبة وحبها • والمقطع الثالث يتحدث عن الانتقام لسقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين فيقـول :

اذا تركنا هذا المكان لأعدائنا الفانين
ستكون حيـاتنا عارا للابد

يتحدث الشاعر بعد ذلك عن أن من يموت فى سبيل هذه المعركة سينال حياة المجد ، أما من سيعود حيا فسيكون الشرف قرينه الى الأبد • ثم تتناول القصيدة المتخاذلين من الشباب والأصحاء وكيف أن العـار سيلحقهم ، وأخيرا يختتم الشاعر قصيدته ، بأنه راحل وعيناه تبـكى وعقله مشغول بمحبوبته التى هى أحسن من فى الدنيا •

والمتأمل فى هذه القصيدة يكتشف من الوهلة الأولى أن تطورا هاما قد نشأ فى المجتمع وترك بصماته على الشعر • والحقيقة ان من يقـرأ الأدب الفرنسى فى القرن الثانى عشر لابد وأن يلمس انعكاسا واضحا

---

(٦١) القصيدة عنوانها هو البيت الأول ، ونصه :

Ahi ! Amours, con dure departie

انظـر :

Bedier, op. cit., pp. 28—37.

(62) Quar nus ne doit faillir son Creatour.

لبعض الجوانب الهامة من التغير الاجتماعي والفكري • فقد أدت ظروف الحياة الاجتماعية فى جنوب فرنسا ، وانتقال كثير من نبلاء لانجدوك الى سكنى المدن الى فتور حماستهم للمشاركة فى الحياة العسكرية • وفى بلاط الدوقات والكونتات ازداد دور المرأة بحيث أتيحت الفرصة كاملة لسيدات الطبقة الارستقراطية فى تهذيب أخلاقيات النبلاء، وهو تطور ربما يكون ناتجا عن تأثير الحياة الشاعرية فى بلاط الأمراء المسلمين مى الامارات الأندلسية المجاورة(٦٣) •

ومن ناحية أخرى بدأت تتجسد فى القرن الثانى عشر أخلاقيات الفروسية • وعلى الرغم من صعوبة تحديد معنى مصطلح فروسية Chivalry ، فالواضح أنه كان مصطلحا ذا معنى مزدوج ، فهو يوحي فى معناه الواسع بأن عادات الطبقة المحاربة القديمة تراجعت أمام وسائل التسلية التى كان أبناء الطبقة الارستقراطية يمارسونها فى البلاط حفاظا على هوية الطبقة التى فقدت وظيفتها العسكرية أو كادت • فقد ارتبطت الفروسية بمثل وممارسات العلاقات الغرامية فى البلاط(٦٤) • طبيعيا أن ينعكس صداها فى شعر الحركة الصليبية فى القرن الثانى عشر ، وهو ما تجسده هذه القصيدة التى عرضنا لها وغيرها من القصائد التالية •

لقد كان سقوط القدس نذير سوء للغرب الكاثوليكى ، وجاءت كثير من القصائد بمثابة رجع الصدى للصدمة التى أصابت الغرب ، ولكن هذا لم يكن كافيا ليحرك الناس فى حركة عامة مثل تلك الحركة التى أفرزت الحملة الأولى • وبدأت أغنيات وقصائد الحروب الصليبية تتحدث عن المتخاذلين وبدأت صياغات الترغيب بالغفران وخدمة الرب الذى عانى

---

(63) Cantor, Med. Hist., p. 380.

(64) Ibid, pp. 377 — 385.

على الصليب ، ثم التهديد بسوء العقاب فى يوم الحساب الأخير تتسرب الى هذه القصائد مثلما يتضح فى الأغنية التى عرضنا لها فى السطور السابقة • وهناك أغنية أخرى تعكس هذه الصدمة ، يقول مطلعها :

كان يجب أن أكون فى زمن آخر
لكى أكتب الأغنيات والكلمات والأناشيد (٦٥)

وفى هذه الأغنية يركز الشاعر على أولئك الذين يتخاذلون عن نصرة الرب ، ويكشف لنا عن أولئك الذين يعارضون العشور التى فرضتها الكنيسة لتمويل الحملة الصليبية ، كما يوضح أن الشهوة جعلت عدد الذين ينضمون للحملة لتحقيق مكاسب شخصية أكبر من عدد جنود الايمان • وبقية القصيدة تكرار لموضوع الترغيب والتهديد الذى ورد فى القصائد السابقة •

ونفس هذا الموضوع تكرره قصيدة أخرى مطلعها : أهجروا الشر واتجهوا صوب الخير (٦٦) • ويعود موضوع الحب ليفرض نفسه مرة أخرى على قصيدة صليبية يعانى فيها الشاعر من فراق الحبيبة التى يتغزل فيها غزلا مبتذلا ، ويبدو موضوع الحرب بعيدا تماما عن خاطره (٦٧) • ويتكرر الموضوع فى قصيدة يتحدث الشاعر فيها عن حبيبته التى سوف يتركها بسبب قيامه برحلة حج (٦٨) •

---

(٦٥) عنوانها البيت الأول Bien me deüsse targier ، انظر Bedier, op. cit., pp. 45—50

(٦٧) يقول مطلع القصيدة :
الزمن الجديد والربيع والبنفسج
والبلبل يدعوننى الى الغناء
انظر قصيدة :
(Ibid, pp. 86 — 96) Li nouviauz tanz et mais et violete

(68) Ibid, 97 — 106.

ولنختتم حديثنا عن أغنيات الحملة الثالثة بقصيدة كتبت ما بين سنة ١١٨٩ م ، والشهور الأولى من سنة ١١٩١ م • وهذه الأغنية تجسد الصدمة التى حدثت بسبب استيلاء صلاح الدين على القدس من ناحية ، كما تكشف عن الصعوبات التى كانت الدعوة الصليبية تلاقيها فى أوربا آنذاك من ناحية أخرى ففى هذه القصيدة يختتم الشاعر كل مقطع بقوله:

القدس تأسف وتبكى لمنقذها

الذى تأخر كثيرا(٦٩)

ولدينا قصيدة أخرى يتصور ناشرها أنها كتبت سنة ١١٨٧ م بعد وصول خبر معركة حطين الى مسامع الغرب بقرير ، وقبل معرفة نبأ استيلاء صلاح الدين على القدس(٧٠) • وليست للوثيقة قيمة تاريخية كبيرة فى مجال الأحداث والمعلومات ولكن قيمتها الأساسية تكمن فى أنها تطلعنا على الانطباع الأول الذى سيطر على صايبيى الشرق • ومن هذا الانطباع خرج الشاعر بحكاياته عن النزاع بين الاسلام والمسيحية، وعن نجاح خليفة نور الدين والهلع الذى أصاب الصليبيين والقصيدة تحكى عن معارك الصلاح ، وتكشف عن تعصب الشاعر ضده بحيث أنه يلفق له كثيرا من الصفات السيئة ، فهو يتهمه بأنه قتل خليفة مصر ، ويتهمه بعشق امرأة متزوجة هى امرأة نور الدين محمود الذى يقول الشاعر ان صلاح الدين دس له السم ، كما يتهمه بأنه وراء موت ابن نورالدين كذلك ••• وقد رأى الشاعر فى ذلك شيئا يصم به العدو الذى رأى فى انتصاره قرب طبرية أمرا غريبا لم يستوعبه جميع المسيحيين • اما اشاراته عن معركة حطين نفسها فهى تتسم الغموض ، ثم يغوص فى تفاصيل خيالية لا نجد لها مثيلا فى أى مصدر آخر • وقد بقى من هذه

---

(69) Ibid, pp. 77 — 81.

(70) Gaston Paris, « Un poème latin contemporain sur Saladin», Archives de L'Qrient Latin, Tom. I, pp. 433 — 444.

القصيدة مائة بيت وعشرة فقط ، ولكنها تكفى لكشف زاوية من الأثر الوجدانى لانتصارات المسلمين بقيادة صلاح الدين .

ولدينا قصيدتان عن الحملة الصليبية الرابعة ، واذا كان الهزل والمأساة قد امتزجا فى الحملة الصليبية الثالثة التى كانت أكثر الحملات اللاتينية طموحا ، من حيث بدايتها على الأقل ، واذا كانت هذه الحملة قد كشفت عن تضاؤل الاهتمام بالحركة الصليبية فى الغرب (كما لمسنا من خلال القصائد أيضا) ، فان الحملة الصليبية الرابعة قد كشفت عن امكانية استغلال الحركة الصليبية لتحقيق أغراض أخرى غير انقاذ مملكة بيت المقدس اللاتينية . حقا لم يكن البابا انوسنت الثالث ، الذى دعا الى هذه الحملة ، يقصد أصلا أن تتوجه الى القسطنطينية ، ولكن البنادقة الذين قدموا الأسطول للجيش الصليبى أجبروا الصليبيين على الامتثال لأوامرهم ، وعلى الفور وافق انوسنت الثالث على هذا التغيير الذى رأى فيه وسيلة لتأكيد السيطرة البابوية على الامبراطورية البيزنطية .

والقصيدة الأولى كتبها الشاعر هيج دى بريزى Hugues de Brezé ، الذى كان أحد ثلاثة شعراء كان يحملهم الاسطول البندقى الذى رحل من البندقية قاصدا زارا والقسطنطينية(٧١) ويبدو أن هذه القصيدة كانت شائعة ورائجة بدليل النسخ الكثيرة الموجودة لها فى عدة مخطوطات . وبين العديد من المقطوعات التى صيغت فى هذا الموضوع لم تفقها أغنية أخرى فى تصوير عواطف الايمان الحقيقى ، والمشاعر التى كانت تعتمل فى صدر الصليبى عندما يترك كل ما أحبه ، اذ تقول الأغنية(٧٢) : كل يبكى أرضه وبلاده حين يفارق قلبه .

---

(٧١) كان الشاعران الاخران هما Conr de Béthunc ، وجى Gui أمير قصر كوكى Gui Chêtelain de Couci ، انظر : Bedier, op. cit., p. 123.

(٧٢) القصيدة عنوانها : Ibid, pp. 121 — 31, S'onques nus hom por durc departie.

هذه القصيدة والقصيدة الأخرى [٧٣] ، يبدو فيها الأسف على فراق الحبيبة واضحا لأن الشاعر لا يملك سوى ذلك • ويبدو فيهـــا موضوع الحب والفروسية ممتزجين على نحو يجسد تماما الصـــياغة الأدبية للقيم التي كانت تسود المجتمع الفرنسي في أخريات القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر •

أما الحملة الخامسة التي دعا اليها البابا انوسنت الثالث ، ثم البابا هنريوس الثالث ، فقد كان هدفها الاستيلاء على مصر ، واسترداد الشرف العسكري الصليبي الذي أهدره المسلمون على أرض الشام بالقرب من حطين ، ولكن هذه الحملة فشلت رغم نجاحها في الاستيلاء على دمياط واضطر الصليبيون للتخلي عن أحلامهم في مصر هربا من الهلاك في أوحال الدلتا ، وفي سنة ١٢٢١ م تم جلاؤهم عن مصر دونما قيد أو شرط • ولدينا قصيدتان حول هذه الحملة •

واحدى هاتين القصيدتين موجهة الى فردريك الثاني قبل تتويجه ، اذ كان فردريك قد قطع على نفسه وعدا بالذهاب في حملة صـــليبية الى الأرض المقدسة • وكان من نتائج الحملة الخامسة أن وقع عـــدد من الدوقات والكونتات الألمان والفرنسيين أسرى في أيدي المصريين ، وكانوا ينتظرون قدوم فردريك الثاني • وبمجرد تنصيب فردريك على العرش في الثاني والعشرين من نوفمبر ١٢٢٠ م، أخذ الامبراطور شارة الصليب في روما على يد الكردينال هوجو الأوستي Hugo d, Ostie (الذي صار فيما بعد البابا جريجوري التاسع الذي وقع قرار الحرمان ضد فردريك الثاني) ، وأقسم الامبراطور على ارسال التعزيزات لجيش الصليبيين ، ثم الرحيل بنفسه الى الشرق في أغسطس ١٢٢١ م ، ولكن تطورات الأمور أجلت خروجه الى سنة ١٢٢٨ كما هو معروف •

---

(73) Ibid, pp. 135 — 141.

في هذه الظروف كتب الشاعر قصيدته ، وفيها نكتشف أن المصالح والاهتمامات الذاتية في الوطن كانت تحول دون السفر الى الأرض المقدسة ، فالشاعر يلوم من يتمسك بزخرف الدنيا على الرغم من فنائه ، ويقول :

لكن أصحبنا الى ما وراء البحر
اذ أن كل هذه الأشياء ستهلك يوما ما
ولا يهلك ربنا

وتعلق القصيدة آمالا كبيرة على الامبراطور فردريك الثانى الذى يملك الكثير ، ولن يبخل بشىء فى سبيل هذه الحركة . بيد أن أطرف ما تقدمه القصيدة ، هو أن الشاعر يطلب من الماركيز الذى يخاطبه مكافأة المهرج الذى حمل الرسالة اليه :

حيث أن صليبى يدافع عنى ويحفظنى
من أن أضيع مالى فى أشياء ذات زهو باطل

أى أن من يأخذ شارة الصليب للذهاب فى حملة مقدسة ، يحرم عليه أن ينفق ماله فى توافه الأمور (٧٤) .

أنتهت محاولات الحملة الخامسة بهدنة تطورت الى سلام استمر حتى سنة ١٢٣٩ م . وفى أثنائها عكفت البابوية على الحاحها بمطالبة فردريك الثانى بضرورة الاسراع بالوفاء بقسمه الصليبي ، ولكن فردريك كان صقليا حقيقيا ، فلم يكن الاسلام بالنسبة له كتابا مغلقا ، كما أن المسلمين لم يكونوا مجرد قوم كفار يستحقون الموت فى نظره . ومنذ ١٢٢٦ م بدأت مراسلات ودية بين السلطان الكامل محمد الأيوبى ، والامبراطور فردريك الثانى ... وتطورت الأحداث حتى غادر فردريك ايطاليا فى أسطول صغير وستمائة فارس في أواخر يوليو ١٢٢٨ م .

---

(74) Ibid, pp. 155 — 165.

وهناك حدث أمر عجيب اذ أصدر البابا قرارا ثانيا بحرمان الامبراطور ، وأسفرت حملته عن هدنة كان أهم شروطها أن يتسلم فردريك القدس وبيت لحم مقابل عدم السماح بنزول أية حملة صليبية على شواطىء مصر وبلاد الشام(٧٥) •

فى هذه الأثناء وقعت عدة أحداث أدت الى قدوم حملة لويس التاسع على مصر ، ففى سنة ١٢٣٩ قدمت حملة صليبية جديدة بقيادة ثيبالد الرابع Thibaut IV ، كونت شمبانى وملك نافار • ووصلت سفن هذه الحملة الى شواطىء عكا فى سبتمبر من نفس السنة • واختلف الصليبيون المحليون والصليبيون الجدد حول وجهة هذه الحملة ، هل تكون مصر أم دمشق • وقرر ثيبالد مهاجمة الحدود المصرية عند غزة • وانتهت مغامراته بأن تمزقت القوات الصليبية شر ممزق على أيدى فرسان الجيش المصرى فى غزة • وهناك راح عدد كبير من النبلاء الصليبيين أسرى أو قتلى ، كما أن الملك الناصر داود ، أمير الكرك وفلسطين ، انتهز الفرصة واسترد بيت المقدس فى السابع من ديسمبر ١٢٣٩ م • وكان الفشل مصير محاولات ثيبالد الذى لم يجد بدا من الرحيل الى أوربا فى أواخر سبتمبر سنة ١٢٤٠ م ، دون أن يحقق شيئا •

حول هذه الحملة ، التى لا تحمل رقما ، والظروف التى واكبتها أو سبقتها لدينا سبع قصائد ، كتب ثيبالد نفسه أربع قصائد منها • والقصيدة الأولى(٧٦) تتحدث عن التخاذل وعن ذلك الذى يقول « اننى

---

(٧٥) عن تفاصيل هذا الموضوع ، انظر :
محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة ، (المجلس الأعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية) ١٩٦١ ، ص ٦٠ — ٧١ •

(٧٦) مطلعها : سيدى ، اعرف ذلك الذى لن يذهب الآن •
Seignor, Saichiés qi or ne s'en ira
، انظر :
Bedier, op. cit., pp. 169 — 173.

لن أترك أحبائى مهما كان الثمن » ، ويقارنهم بالشجعان الذين يحبون الرب والذين يرحلون الى هناك• وتكشف القصيدة عن حدة القلة المؤمنة بهدف ترى الكثرة منصرفة عنه ولاهية بأمور تبدو أكثر هوانا وتفاهة ، اذ يبقى « الأشرار الجبناء » ، ويؤكد الشاعر أن من لا يرى طريقة فى خدمة الرب أعمى •

أما قصيدته الثانية(٧٧) فيقول مطلعها :

فى هذا الزمن المليء بالغدر
والحسد والخيانة ، بالظلم والأذى
نحن البارونات نحول زمن الشر الى زمن أبشع
وحين أرى الحرمان يوقع على صاحب العقل الأرجح
تنتابنى الرغبة فى الغناء

هذه القصيدة تحمل اشارة واضحة الى توقيع عقوبة الحرمان على فردريك الثانى من البابا جريجورى التاسع • فبعد أن أعلن البابا فى أبريل ١٢٣٩ تحرير جميع رعايا فردريك من الاخلاص والولاء لحكمه بمقتضى عقوبة الحرمان البابوية ، صاغ ثيبالد هذه القصيدة قبل رحيله الى الأرض المقدسة ، فما هى الظروف السياسية التى جعلت ثيبالد يعلن ضجره من هذا الزمن المليء بالشرور ؟ كان البابا يستنفز المسيحيين لحملة صليبية جديدة قبل نهاية الهدنة التى عقدها فردريك مع المسلمين فى سنة ١٢٣٩ م • ولكن الظروف السياسية الجديدة فى أوربا جعلت جريجورى التاسع يستخدم القوات التى كانت قد تجمعت للحملة الصليبية فى الدفاع عن المملكة اللاتينية فى القسطنطينية ازاء الأخطار التى كانت تتهددها من قبل البيزنطيين • وقد انصاع كثيرون لرغبة البابا ، ورفض البعض الاخر ، وظلوا على ولائهم لمشروع تخليص الأرض المقدسة ، وقد ضايقهم أن يتحول البابا الى مشروع آخر يهدف

---

(77) Ibd, pp. 177 — 186.

الى خدمة أغراضه السياسية • وفى هذه القصيدة يعارض الشاعر قرار الحرمان ضد الامبراطور أو توجيه اللوم والتهديد بحرمان كل من يريد الذهاب الى الأرض المقدسة(٧٨) •

لقد لعبت الحركة الصليبية دورا هاما فى الحياة الأوربية فى القرن الثالث عشر ، فقد اتخذت شكلا مقلوبا وتحولت الى حروب ضد أعداء البابوية • وكلما مضت البابوية قدما فى استغلال الحركة ، كلما أدينت الحركة الصليبية وازداد النقد ضدها لأنها انقلبت الى حركة تناقض مثلها العليا الأصلية وقيمها بشكل صارخ • هذا الاستغلال السياسى البحت للفكرة الصليبية حدث فى الوقت الذى كانت فيه بقايا مملكة بيت المقدس اللاتينية تحتاج الى التعزيزات الأوربية لانقاذها من الهلاك• كما أن زعماء أوربا فى القرن الثالث عشر ، لا سيما فى النصف الثانى منه ، كانوا عازفين عن شن حروب جديدة ضد الاســلام • ذلك أن مشكلات الحكم ، والاقتصاد والفكر ، والثقافة الأوربية كانت قد امتصت طاقاتهم ، وما بقى من هذه الطاقة وجهته البابوية ضــد أعدائها فى أوربا(٧٩) •

هذه الأوضاع تتجلى واضحة فى الأشعار التى تدور حول حملة ثيبالد سنة ١٢٣٩ ففى بقية قصائد ثيبالد الأربع نجد نفس النغمة ، ونفس الموضوع ، كما نجد اختلاط الحب والحرب ، وآلام الفــــراق والرحيل عن الوطن والحبيبة من أهم موضوعات هذه القصائد(٨٠) • وثمة قصــيدة أخرى فى رثاء ضــحايا معركة غــزة من الصــليبيين مطلعها :

لست أغنى ، فماذا عساى أن أقول

---

(78) Ibid, pp. 178 — 180.

(79) Cantor, Med. Hist., pp. 330 — 331.

(80) Bedier, op. cit., pp. 217 — 225.

وكيف يسعد قلبى ، بينما ضاع باروناتنا فى أرض سوريا(٨١)

وتتحدث القصيدة عن الأسرى وحزن الفرنج عليهم ، ويحاول الشاعر أن يواسى الناس ، الذين كان حزنهم كبيرا على من فقدوهم فى غزة ، ويبدو أن الصليبيين فى الشرق كانوا فى حال من الهلع ، لأن أحد المصادر التاريخية يذكر أن ثيبالد كان يرى الدموع ويسمع صيحات الحزن كلما مر بقرية ، أو مكان فى المناطق الصليبية(٨٢) .

ثم نأتى الى الحملة الصليبية السابعة ، ولدينا عنها ثلاث قصائد(٨٣) . ففى سنة ١٢٤٤ م كان الخوارزمية يتجولون فى المنطقة العربية يبيعون سيوفهم فى خدمة الأيوبيين ، واستطاعوا أن يستولوا على مدينة بيت المقدس لينتزعوها نهائيا من أيدى الصليبيين . وفى أكتوبر من السنة نفسها تمكنت جوش الصالح نجم الدين أيوب ، تحت قيادة مملوكه بيبرس ، وبمساعدة الخوارزمية ، أن ينزلوا بالصليبيين هزيمة ساحقة عند غزة ، وراح أفراد الجيش الصليبى بين قتيل وأسير . وكانت أوربا فى شغل عن صليبيى الشرق ، وعبثا حاول البابا انوسنت الرابع أن يحرك أوربا لنصر المملكة اللاتينية ، ولكن المشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية من ناحية ، والصراع بين الامبراطورية والبابوية من جهة أخرى لم تحرك واحدا من ملوك أوربا سوى لويس التاسع ملك فرنسا .

فى ١٧ أكتوبر سنة ١٢٤٤ م ، حين وفدت أنباء الكارثة الى فرنسا كان لويس قد سقط مريضا ، وفى أثناء مرضه أخذ شارة الصليب ، وقطع على نفسه عهدا بأن يذهب فى حملة صليبية ولدينا عدة روايات عن الظروف التى أخذ فيها لويس شارة الصليب ، وكلها مغلفة بالخيال

---

(81) Ibid, pp. 229 — 34.
(82) Ibid, p. 230.
,83) Ibid, pp. 235 — 267.

والمسحة الاعجازية بحيث أننا لا نستطيع أن نثق فى أى منها • والقصيدة الأولى تمثل رد الفعل ازاء هذا الخبر ، كما أنها تكشف عن مدى خفوت الفكرة الصليبية فى الوجدان الأوربى ، ومطلع هذه القصيدة يقول :

كل الناس يجب أن يتركوا أنفسهم للفرح
ويعيشون فى بهجة :
لأن ملك فرنسا أخذ شارة الصليب

ثم تتحدث القصيدة عن الظروف الاعجازية التى جعلت الملك يأخذ على نفسه عهدا بالذهاب فى حملة صليبية • والفرح الذى تعكسه هذه الأغنية يكشف عن أن الناس لم يعودوا يتحركون لنصرة الفكرة الصليبية من تلقاء أنفسهم ، على الرغم من ارتباطهم العاطفى بالأرض المقدسة ، بحيث أن ذهاب أحد ملوك أوربا فى حملة أصبح مثار سرور وفرح •

هذا الانطباع تؤكده القصيدة التالية حول هذا الموضوع ، فبعد أن تقلد لويس التاسع الوشاح الصليبى فى دير سان دونى فى ١٢ يونيو ١٢٤٨ م ورحل الى الشرق ، كتب شاعر آخر :

بأمر الرب ، سوف أدافع عن السرور والفرح
لأن الرب أوضح الطريق السوى الذى نسير فيه اليه دونما عائق

ثم يتحدث هو الآخر عن قصة مرض لويس وشفائه الاعجازى ، وأخذه لشارة الصليب •

أما القصيدة الثالثة ، فتدور حول الأحداث التى تلت هزيمة الصليبيين فى المنصورة فى الثامن من فبراير ١٢٥٠ م • فقد تمزق الجيش الصليبى فى ثلاثة أيام على أيدى المسلمين ، وأسر الملك • ثم تمت المفاوضات على دفع الفدية للملك ، ورحل مع بعض شراذم الجيش على مراكب جنوية ، تاركا بين أيدى المسلمين عددا من الأسرى • وعاد عدد كبير من رجاله الى فرنسا ، وتوجه الملك بمفرده صوب عكا

مع بعض أفصاله الاقطاعيين ، وهناك طرأ عليه وعلى صليبيى الشرق هذا السؤال : هل ينبغى أن يعود الى فرنسا ؟ وعلى الرغم من أن أخويه قد عادا الى فرنسا ، فقد كانت العودة الى فرنسا تعنى ترك بقية المناطق الصليبية تحت رحمة المسلمين وترك الاثنى عشر ألف أسير المسجونين فى مصر ••• وقد بقى فى بلاد الشام ومعه بعض الأمراء مثل جوانفيل الذى كتب لنا قصة هذه الحملة التعسة • وفى هذه الظـــروف كتب الشاعر قصيدته التى يقول مطلعها :

لا يمكن لأحد أن ينظم أو يغنى أغنية جيدة فى موضوع سيء(٨٤)

والقصيدة تواسى الملك على الهزيمة ، وتتحدث عن أن الرب هو الذى جعله يأخذ شارة الصليب ، وأن مصر كلها كانت خائفة من سمعته ، ثم تقول الأغنية مخاطبة الملك :

والآن تضـــيع كل شيء
اذا تركت القـــدس فى أســـرهم

وتكشف القصيدة عن تدهور حال الصليبيين فى الشرق من جهة ، وعن عدم اهتمام الغرب بمساعدتهم من جهة أخرى ، فالشاعر يخاطب الملك باعتباره سيد الانتقام الذى اختاره الرب لكى ينتقـــم للاسرى والموتى الذين سجنوا وماتوا فى سبيل الرب وفى سبيل لويس • ومن أهم ما تبينه القصيدة فى المقطع الثالث أن الفرسان الصليبيين فقراء ويخشون البقاء فى الشرق ، ومن ثم فالأمل معقود على الملك • واذا ما خذلهم ، وخذل شعب الرب ، والشهداء ، والقديسين والأبرياء ، فانهم جميعا سوف يشكونه يوم الحساب الأخير •

وتتضح خصوصية الروح الفرنسية حين يذكر الشاعر الملك بواجبه فى حماية الكيان الصليبى لأن ما يملكه من كنوز الذهب والفضة يفوق

---

(84) Ibid, pp. 259 — 267.

ما لدى أى ملك آخر ، ويطالبه بالبقاء حتى يمكن لفرنسا أن تستعيد شرفها ... وأنه سيكون من العار أن يترك الأسرى والشهداء لكى يعود الى فرنسا ليواجه استنكارا عاما .

غادر لويس التاسع مصر عقب هزيمته ووصل الى عكا فى أواسط مايو سنة ١٢٥٠ م ، وظل مقيما ببلاد الشام حتى أبريل سنة ١٢٥٤ م ليصل فرنسا فى يولية من تلك السنة ، بعد أن فشل فى القيام بأى عمل ذى قيمة . فلقد رفضت كافة القوى الأوربية مساندة الكيـــان الصليبى المحتضر ، اذ طلب هنرى الثالث ملك انجلترا من البابا انوسنت الرابع أن يعفيه هو وباروناته من النذر الذى كان قد قطعه على نفسه بالذهاب فى حملة صليبية ، كما رفض شقيقا لويس التاسع (شـــارل كونت أنجو ، وألفونسو كونت بواتييه) ارسال أية مساعدة لشقيقهما فى الشرق ، وقامت حركة شعبية هى حركة الرعاة تطالب بعودة لويس الى بلاده كما تصاعدت انتقادات النبلاء الفرنسيين ضد انوسنت الرابع الذى وجه القوى الصليبية الى محاربة كونراد بن فردريك الثانى عدو البابوية . بل ان الملكة بلانش أم لويس هددت بأن تصادر أملاك النبلاء الذين يستجيبون لدعوة البابا(٨٥) ..

كانت حملة لويس ، بطابعها الفرنسى الخالص ، علامة على تدهور الفكرة الصليبية . ومنذ عاد لويس من حملته الفاشلة (١٢٥٤ م) كانت سنوات عديدة قد مرت دون أن تشغل أمور الشرق بال الغرب بشكل جدى . وحين ظهر الخطر المغولى فى الأفق كتب البابا اسكندر الرابع الى ملكى فرنسا وانجلترا يدعوهما للتشاور مع باروناتهما بشأن عمل مسيحى موحد ، وأن يوافيانه بمقترحاتهما فى ٦ يوليو ١٢٦١ . وفى أبريل ١٢٦١ عقد لويس التاسع اجتماعا كبيرا فى باريس أعلن عن مضمون خطاب البابا . ولكن الأمور تعقدت بعد ثلاثة شهور فقط اذ

---

(٨٥) زيادة ، حملة لويس التاسع ، ص ٢٥٧—٢٥٨ .

جاءت الأنباء باسترداد ميخائيل باليولوجوس للقسطنطينية ، وكانت هذه صدمة كبيرة للمسيحية الكاثوليكية .

ومنذ تلك الأثناء لم يعد مطروحا بشكل جدى موضـــوع حملة صليبية جديدة صوب الأراضى المقدسة ، وانشغلت البابوية بالصراع ضد مانفريد ابن فردريك الثانى ، لكى يأخذ منه عرش صقلية ويعطيه لشارل أنجو شقيق ملك فرنسا(٨٦) ... وهكذا ماتت الفكرة الصليبية ، وأصمت أوربا أذانها عن نداءات الاستغاثة الصادرة عن صليبى الشرق. ومن ناحية أخرى بدأ المسلمون يستولون على المدن والقلاع الصليبية تباعا حتى انتهى الوجود الصليبى بسقوط عكا فى يد السلطان الأشرف خليل بن قلاون سنة ١٢٩١ م .

ولدينا عدة أغنيات وقصائد عن هذه الفترة تكشف عن هذا الفتور فى الحماسة الصليبية بشكل واضح ، كما أنها تشى بانشغال الغرب الأوربى بمشاكله وهمومه الذاتية بالقدر الذى جعله يترك صليبيى الشرق لمصيرهم المحتوم . والأغنيات التى لدينا عبارة عن خمس أغنيات غير محددة التواريخ ، وهى تجمع بين موضوعات الحب والحرب ، والاشارة للحوادث الداخلية(٨٧) . كما أن لدينا مجموعة من احدى عشرة قصيدة تتناول أحداث الفترة الأخيرة وتركز على الأمور الداخلية فى أوربا ، وتكشف عن اخفاق المحاولات المتأخرة لتجميع حملة صليبية جديدة(٨٨) .

* * *

---

(86) Cantor, Med. Hist., pp. 485, f.

(87) Bedier, les Chansons de Croisde, pp. 269 — 300.

(87) Document relatifs a L'histoire de Croisades 1, Onze Poémes de Rutebeuf Concernant la Croisade, (Publiés par : Edmond Farol,et Julia Bastin) Paris 1946.

هكذا يكشف شعر الحركة الصليبية عن جانب هام ومثير من جوانب العلاقة بين الشعر والتاريخ ، فالفكرة والحماسة الوجدانية يمكن رصدها من خلال القصائد والأشعار التى تعبر عن الجو النفسى السائد ، لا سيما وأن الشعر كان من أهم وسائل الدعاية التى استخدمتها الحركة الصليبية طوال تاريخها . ومن ثم فاننا نرى أن الشعر مصدر لا غنى عنه للمؤرخين الذين يربطون أنفسهم بمنظور اجتماعى واسع ، اذ يجب على المؤرخ أن يكون ذا حس يجعله يهتم بالحال الوجدانية ، والشعر يحمل الكثير من الدلالات الهامة على التغيرات الشاملة فى المشاعر والأحاسيس فى صدور الناس صناع التاريخ الحقيقيين .